الإسلام والفطرة

تأملات

تكشف الترابط الوثيق بين الآيات القرآنية والآيات الكونية

تأليف

محمد زكي الدين محمد قاسم

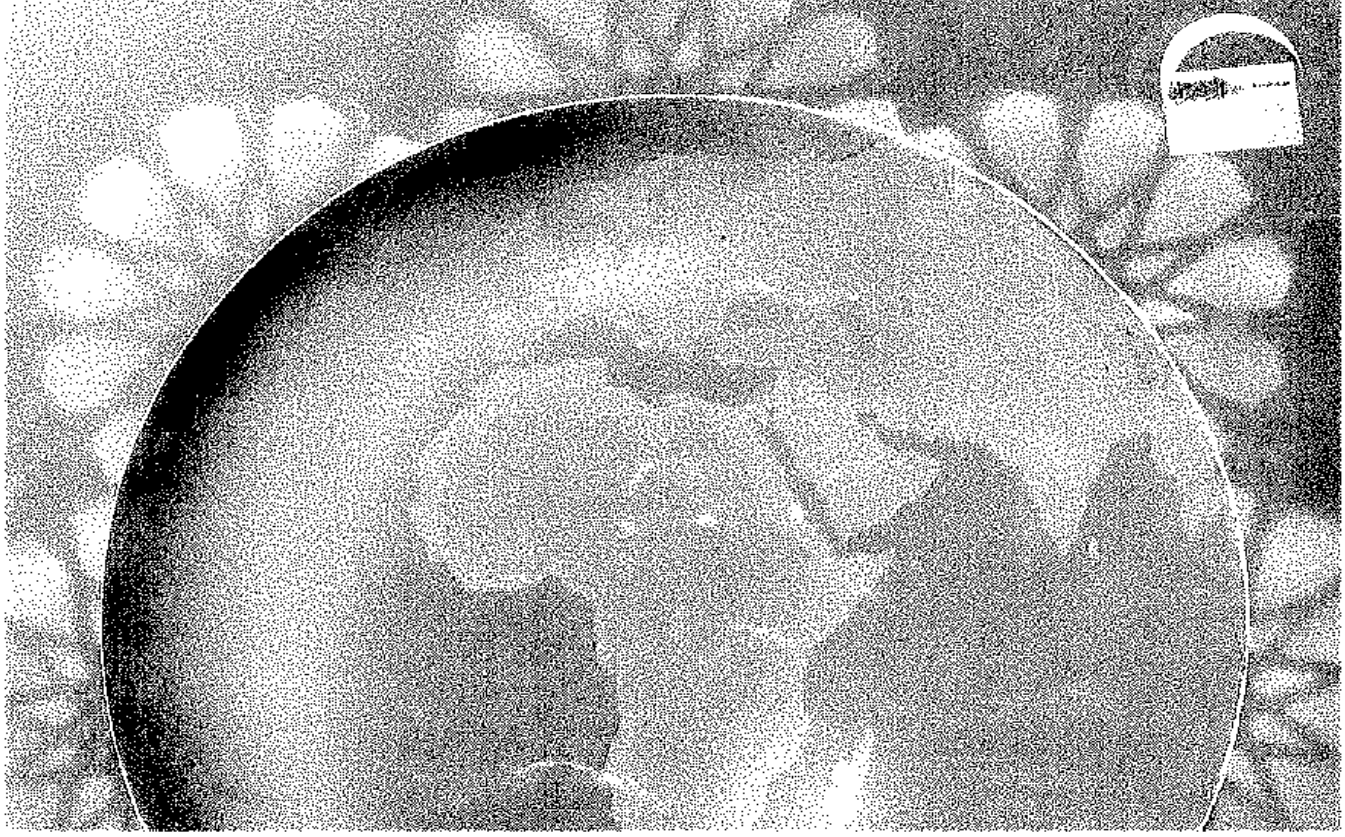

الإســـلام والفطـرة

الإسلام والفطرة

تأملات

تكشف الترابط الوثيق بين الآيات القرآنية والآيات الكونية

تأليف
محمد زكى الدين محمد قاسم

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

دار الصفوة
للطباعة والنشر والتوزيع

ش. م. م. الفردقة . البحر الأحمر ت : ٤٤١٥٧٠/٤٤١٣١٥ . فاكسميلي : ٤٤١٣١٥ ت : القاهرة ت : ٣٦٠٦٣٢٠ . فاكسميلي : ٣٦٠٦٣٢٠

(١) سُورَةُ الفَاتِحَةِ

مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ

ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

وَهِيَ

سَبْعُ آيَاتٍ

To: www.al-mostafa.com

تمهيـــد

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وخاتم النبيين سيدنا محمد ؛ الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير. وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته ، وسلك طريقه إلى يوم الدين . .

أما بعد :

فإن هذا المبحث يدور ـ إن شاء الله تعالى ـ حول قضية من القضايا السائرة ؛ التى تداولتها القرون ، وتناولتها الألسنة .

تداولا : لم يتجاوز على الزمن ـ كله ـ الانتقال من الحكم إلى بيان الحكمـة .

وتناولا : لم يتجاوز تقرير القاعدة إلى بيان أسبابها ، وتفسير غايتها ، والوصول منها إلى استكناه الدرس ، واستكشاف العبرة .

تلك القضية هى : أن الإسلام دين الفطرة .

والحقيقـة التى نضعها ابتداء أمام النظر ، ونسلك فى مسيرتنا معها مسلك التقرير بالشاهد ، وتدعيم القول بالدليل . **إنما هى** : الجزم بأن هذه القضية إنما تمثل ـ بحق ـ صورة شاخصة ، وحجة قاطعة **لإعجاز** ـ هذا الدين ؛ إذ تشرح اليوم ؛ بمنطق العلم ، وبداهة العقل ، ونتائج التجربة : **أن الإسلام هو الدين الحق** ، الذى أنزله الله ، وشرعه ، وارتضاه .

ذلك الإعجاز الذى انبنى ـ منذ البدية ـ على توافق المعجزة والمنهج ؛ منـذ بداية الوحى به ، واستمر كذلك ، وسيبقى كذلك ؛ حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن إشارة الوحى العامة نحو هذا الإعجاز ـ الذى يمثل فى قضيتنا هذه أنموذجاً تطبيقياً لها ، وشاهد صدق عليها ـ مايقول الله تبارك وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١)

وقوله عما أخبر به رسوله ، ومبلغ وحيه ، ومبين مُرَاده من عباده ﷺ :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ . . ؟ ﴾ (٢) .

ولعلنا بيسير من التأمل : ندرك أن القضية المحكوم بها ـ هنا ـ إنما هى صدق النبى ﷺ القطعى فى كل ماأخبر به ، وأنه وحى من الله تعالى .

ولكنها ترتبط بقَسَم ؛ ينقلنا نقلا عجيبا إلى مشاهد : ـ عدة ـ فى الكون بآفاقه المتعددة الحركة ، المرتبطة بعالم النجوم والكواكب ، فى سُنَنها العادية ؛ فى منازلها ، وفى سننها المدخرة فى الغيب ؛ عندما تنفرط ، وتهوى ، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات .

وإلى مشاهدة العوالم المادية والروحية : عالم البشر ، وعالم الملائكة ، والعالم الكونى الأدنى والأعلى ؛ الأمر الموحى بارتباط آيات هذا الدين ، وأحكامه ؛ بحقيقة هذا الكون ؛ بكل عوالمه ، وآفاقه وسننه ، وقوانينه .

والعبارة الشهيرة المعبّرة عن قضيتنا هذه هى :

(الإسلام دين الفطرة)

---

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

(٢) سورة النجم : ١ ـ ١٢ .

فطرة الإسلام .. ما هي ؟

تلك جملة مشتهرة بين الخاص ، والعام ، وهى تعبير ملازم لبيان حقيقة الإسلام وعرض مبادئه .

ولكن دلالتها الحقيقية ، وأبعادها الدقيقة لايمكن أن تقف عند حد المدلول الذى يقصد بها ـ عادة ـ بل ربما لو أخذت العبارة بمعناها المتداول : لأدت إلى مفهوم البِدائيةِ ، أو ما يمكن أن يظنه البعض مقارنا لمعنى التخلف . وعدم الاستيعاب لمقتضيات الحضارة ، وتطورات العصر . .

ذلك المعنى الذى كثيراً مانطلقه على شعوب البداوة والتخلف فنقول : إنهم شعوب فطرية . !! أى : أنهم على أصل الفطرة . .

وما التعبير بالفطريات فى مفهوم العلم التجريبى ، والمخبرى : إلا دلالة على ما هو باق على أصل الخلقة دون تطور . . أو تغير . .

لكن : عندما يدقق الباحث النظر .

وعندما يعمل الفكرة .

وعندما يحاول الربط بين العلاقات القائمة بين الموجودات ؛ على اختلاف مستوياتها .

سواء منها : ما كان فى آفاق الفضاء ، أو فى طباق الأرض .

وسواء ما كان منها : فى حياة العقلاء ، أو الموجودات الحية ؛ المسخرة ، أو المصنوعات المتطورة .

وسواء أكان ذلك : فى آفاق الروح ، أو فى مجالات الغريزة .
وسواء أكان ذلك : فى الإطار الذاتى ، أو الاجتماعى
ونحـــوهـــا . .
فإنك واجدٌ بالدَّليل :

قطعيـــا : من خبر الوحى
وبرهانيا : من عمل المنطق
وتجريبياً : من تحليلات العلم
وحسيّـــاً : فى مجال التجربة والواقع :

أن الإسلام : كدين ، ونظام ، ومنهج .
كعقيدة ، وشريعة ، وسلوك .

أبرز حقائق الفطرة :
فى بساطتها ، واتساقها ، وترابطها ، وحكمتها التى تمثل :
وحدة الصنعة . . .
ووحدة الصانع . . .
و وحدة المبدإ . . .
ووحدة المصير . .

وفى رياض الفكر
ومجاولات التدبر ؛
فى آيات القرآن ،
وآيات الكون :

نعيش فى محراب الإيمان . . لندرك بعض :
ما نرنوا إليه بأبصارنا
وما نتشوفه بقلوبنا
وما نستشرف إليه بعقولنا

ثم لنجد فى أثناء الرحلة :

عند كل مشاهدة . . وفى كل مشاهَد

بل وفى كل حنايا النفس ، وخفايا الوجدان :

أن الإسلام.

خبر الصادق :

الأمين فى الأرض .

والأمين فى السماء .

والمبلغ لمراد الذى فطر السماوات والأرض ؛ والذى أنزل الدين ليهدى بكل آياته ، وكل دلالاته إلى :

قوله تعالى : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ . . . ﴾ (١)

ومن هنا :

فإن هذا الكتاب . . . لاينبغى أن يقرأ على ضوء مذخور العقل من قواميس اللغة . . أو مقاييس المنطق

وإنما لابد له من حشد كامل ؛ لكل :

طاقة العقل ، وطاقة القلب ، طاقة الحس ، وطاقة الروح

والله تَعالى نسألُ أن يجعله قبس هداية ، ومنهج رشد وخير ، ووسيلة نُجْحٍ وسعادة ، وسبيلاً إلى مرضاته فى الدنيا والآخرة . .

إنه نعم المولى ونعم النصير .

الكويت فى الخامس والعشرين من رمضان المبارك ١٤٠٦ هـ

الموافق الأول من يونيه ١٩٨٦ م

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

- دلالة التسمية
- منهاج المسلم
- معنى : (إن الدين عند الله الإسلام)
- الإسلام .. منهج للتكامل والانسجام

دلالة التسمية

عنوان هذا الكتاب مأخوذ من قاعدة مشهورة تقول : (الإسلام : دين الفطرة) .

وهى قاعدة مستفادة من نصين كريمين : من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ﷺ .

فأما أحدهما :

فهو قوله تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وأما ثانيهما :

فهو : مارواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال :

قال النبى ﷺ : « **ما من مولود إلا يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه .**

كما تنتج البهيمة : (٢) بهيمة جمعاء(٣) . . هل تحسون فيها من جدعاء(٤) . ؟؟ »

ثم يقول أبو هريرة : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) البهيمة : كل ذات أربع قوائم ولو فى الماء

(٣) جمعاء : لم يذهب من بدنها شىء .

(٤) جدعاء : قطع طرف من أطرافها .

وإذا كان لا خلاف على أن القرآن الكريم : قطعى الثبوت ، قطعى الدلالة : فإن ما اتفق عليه البخارى ومسلم - رضى الله عنهما - من حديث رسول الله ﷺ : هو من أعلى درجات الصحيح .

وقد قال الإمام ابن الصلاح فى : الحديث الذى يرويه الشيخان أو أحدهما : -

(إنه مقطوع بصحته ، والعلم اليقينى ، النظرى . واقع به . . .) .

بل قال الشيخ أحمد شاكر :

والحق الذى ترجحه الأدلة الصحيحة : ماذهب إليه ابن حزم ، ومن قال بقوله : من أن الحديث الصحيح يفيد العلم القطعى ، سواء كان فى أحد الصحيحين ، أم فى غيرهما . . . . الخ [1] .

وخلاصة القول فى بيان الآية يمكن استنباطه من ثلاثة أمور:

أولها : مورد الآية فى القرآن الكريم . . . وذلك أن التعبير بالفطرة واشتقاقها فى القرآن الكريم يأتى على ثلاثة أنماط :

النمط الأول : وهو أكثر مواردها - ماكان تعبيراً عن الخلق والإبداع ؛ على غير منوال معلوم . وعلى غير مثال سابق .

وذلك كما فى قوله تعالى : إشارة إلى خلق السموات والأرض :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [2] .

وفى الإشارة إلى خلق الإنسان ابتداء - من العدم - وانتهاء بإعادته من البلى بقوله :

---

(١) الباعث الحثيث إلى علوم الحديث للإمام ابن كثير .

(٢) سورة الأنعام : ٧٩ .

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ
فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ
فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ
قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ (١).

وفى معرض بيان النعم ، وإظهار الشكر عليها كما فى قوله :
﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢).

وقوله : ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ ﴾ (٣).

والنمط الثانى ـ وهو الذى يليه فى حجم وروده : هو مايشير إلى إنتقاض السنن القائمة، والقوانين العادية؛ فى نظام الكون، وحركة الفلك.

إما على سبيل العبرة والعظة ، والإشارة إلى قانون الإمكان . . كما فى قوله تعالى :
﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا
لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ (٤).

وإما على سبيل الإشارة إلى التغيُّرِ الحتمى، اليقينى، المؤْذن بانتهاء الحياة الدنيا، وحلول المعاد كما فى قوله تعالى :
﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ (٥).

---

(١) سورة الإسراء : ٥٠ / ٥١
(٢) سورة يس : ٢٢ .
(٣) سورة طه : ٧٢ .
(٤) سورة مريم : ٩٠ـ٩٣ .
(٥) سورة الأنفطار : ١ .

وقوله : ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ (١)

والنمط الثالث : هو ما يشير إلى الارتباط الوثيق بين الدين ، والخلق... إذ أن منـزل الدين وشارع شِرْعَيِة ، هو: صاحب الخلْق، ومنشىء الوجود فى فطرته

ومن كان كذلك: وجب الرجوع إليه فيما يريد ، والوقوف عند ماشرَّعه لهؤلاء العبيد :

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢)

ذلك النمط هو ما ينص عليه قوله تعالى :

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (٣)

ومن الملحوظات الجديرة بالاهتمام ـ هنا ـ أن المعاجم القرآنية تشير إلى :

أن النمط الأول قد ورد فى القرآن الكريم فى أربعة عشر موضعاً .

وأن النمط الثانى: قد ورد فى خمسة مواضع .

وأن النمط الثالث ـ وهو موضوع بحثنا ـ لم يرد إلا فى موضع واحد منفرد به وهو هذه الآية :

والأمر الثانى ـ فى الكلام على هذه الآية الكريمة ـ **هو ما يشير إليه موقعها** بين الآيات التى سبقتها، أو تَلَتْها من سورة الروم .

فإن من يتأمل هذه السورة بآياتها الستين: **يجد أنموذجاً عجباً** لما تضمنته كل آيات القرآن الكريم؛ من إيجاز وإعجاز، وإحكام، وإرشاد، وهداية :

---

(١) المزمل : ١٨ .

(٢) سورة الأعراف : ٥٤ .

(٣) سورة الروم : ٣٠ .

إنها تبدأ ـ هنا ـ بمشهدٍ لحركة التاريخ ، للدلالة على النَّاموس الإلهىْ فى حركة التاريخ،ذلك النَّاموس الحتمى الذى لا يتبدل ولا يتخلف :

﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

يتلوه قانون آخر: ذلك هو بيان حقيقة العلم البشرى .

إن الأمر ـ هنا ـ كما يشير إليه قول الشاعر :

وأعلمُ علِمَ اليوم . . والأمس قبله ولكِنَّنى عن علم مافى غدٍ عَمى

وحتى هذا القائل: فإنه يمسه الغرور بعلمه؛ مع اعترافه بعجزه .

إن الحقيقة البارزة ـ هنا ـ أنه لا يعلم الغد بذاته ابتداء

وأما حاضره، وماضيه، فإنه لا يعلم من أمورهما إلا ظاهرها، ومن أسرارهما إلا قشورها :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٢) .

يلى هذا المعنى : ذلك الأمر : الصريح، الحافز إلى النظر والتدبر فى الذات ، وفى السموات، وفى الأرض، وما بينهما . فى التاريخ ،وأحوال الأمم؛ ما بقى منها برؤيته ومشاهدته، وما غبر : بدراسة آثاره؛ ليدرك من ذلك كله .

قانون الفطرة : فى البدء

وقانون الحكمة : فى التصريف

وقانون الجبروت : فى الإبادة

وليعلم: حقيقة القانون الإلهى ـ هنا ـ :

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . (٣)

---

(١) سورة الروم : ٦ .

(٢) سورة الروم : ٧ .

(٣) سورة الروم : ١١ .

ثم يجيء ـ ولا شك ـ هنا ـ فيض من مشاهد الحياة الحقة ، الأبدية وما يلقاه الناس من جزاء على أعمالهم ، مع بيان أسباب الوصول إلى حقيقة الإيمان ، المستتبع للسعادة ، وقطع العذر عمن حلّت عليه شقوته ؛ بما تتوالى به صفحات الكون ، وآيات الوجود:من الدلالة ، والهداية ، ومد جسور النجاة .

إنها آيات تعرض النظر فى الصباح ، والعشى ، والزوال . . . وفى الحياة والموت و الإخراج . . . وفى الحمإ المسنون ، قبل تخلقه ، وبعده ، وفيما يليه من الحياة والانتشار ، ثم فى حركة الأحياء بتعدد الأنماط ، والأنواع ، واتخاذ الأزواج ، وما يجرى فى هذه الحياة من أحوال ، وأسباب .

ثم فى تنوع حركة الظواهر المحيطة بنا : من نوم ويقظة ، ونور وظلمة ، وخوف وطمع ، وضيق وسَعَة .

الأمر : الذى ينتهى إلى نهاية السُنَن الكونية فى الدنيا ؛ لتبدأ السنن الإلهيَة فى الآخرة

ثم تأتى الآية ـ هنا ـ :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١)

وبعد هذه الآية الفذة فى كتاب الله تعالى ـ بهذا اللفظ ـ تتوالى قوانين الخلق ، وأحوال المخلوقين ، وأحكام التشريع ؛ القائمة على هذا الدين القيم . مع التحذير من الغُصَّة التى تترتب على فوات الفُرْصَة :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾(٢)

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) سورة الروم : ٤٣ ـ ٤٥ .

ثم تتتابع الآيات تمزج بين حركة الكون فى الفضاء ، وفى عالم الأرض .
وبين حركة التاريخ ، والحياة ، والموت ، والقوة ، والضعف ، والعلم والجهل ، والنعيم والعقاب ، لتنتهى السورة بقوله جل شأنه :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (١)

الجانب الثالث : فى الكلام عن هذه الآية ـ إنما هو فيما ذكره العلماء من معناها :

ولعل أخصر وأوفى ما نعلمه من ذلك: دلالةً على المراد ، وبيانا للمقصود : هو ماذكره صاحب الظلال ـ رحمه الله تعالى ـ إذ يقول :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ . . (٢)

هذا التوجيه لإقامة الوجه للدين القيم : يجىء فى موعده ، وفى موضعه ، بعد تلك الجولات فى ضمير الكون ومشاهده ، وفى أغوار النفس وفطرتها .

يجىء فى أوانه وقد تهيأت القلوب المستقيمة الفطرة لاستقباله ؛ كما أن القلوب المنحرفة قد فقدت كل حجة لها وكل دليل ، ووقفت مجردة من كل عُدة لها وكل سلاح .

وهذا هو السلطان القوى الذى يصدع به القرآن .

السلطان الذى لا تقف له القلوب ، ولاتملك رده النفوس .

---

(١) سورة الروم : ٥٨ ـ ٦٠ .
(٢) سورة الروم : ٣٠ ـ ٣٢ .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [1] . . . واتجه إليه مستقيما ، فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التى لا تستند على حق ، ولا تستمد من علم ، إنما تتبع الشهوات والنزوات بغير ضابط ولا دليل .

أقم وجهك للدين حنيفا ؛ مائلا عن كل ماعداه ، مستقيما على نهجه دون سواه : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [2] .

وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية ، وطبيعة هذا الدين

وكلاهما من صنع الله

وكلاهما موافق لناموس الوجود ؛ وكلاهما متناسق مع الآخر فى طبيعته واتجاهه .

والله الذى خلق القلب البشرى : هو الذى أنزل إليه هذا الدين ؛ ليحكمه ، ويصرفه ، ويطبِّ له من المرض ، ويقومه من الانحراف . وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير .

والفطرة ثابتة والدين ثابت : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [3]

فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة : لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة ؛ فطرة البشر ، وفطرة الوجود .

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [4] . . فيتبعون أهواءهم بغير علم ، ويضلون عن الطريق الواصل المستقيم .

والتوجيه بإقامة الوجه للدين القيم ؛ ولو أنه موجه إلى رسول الله ﷺ إلا أن المقصود به جميع المؤمنين . لذلك يستمر التوجيه لهم مفصلا معنى إقامة الوجه للدين :

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .
(٢) سورة الروم : ٣٠ .
(٣) سورة الروم : ٣٠ .
(٤) سورة الروم : ٣٠ .

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[1] . . .

فهى الإنابة إلى الله ، والعودة فى كل أمر إليه .

وهى التقوى وحساسية الضمير ومراقبة الله فى السر والعلانية ؛ والشعور به عند كل حركة وكل سكنة .

وهى إقامة الصلاة للعبادة الخالصة لله .

وهى التوحيد الخالص الذى يميز المؤمنين من المشركين . . .

ويصف المشركين بأنهم ﴿ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾.

والشرك : ألوان ، وأنماط كثيرة .

منهم : من يشركون الجن .

ومنهم : من يشركون الملائكة .

ومنهم : من يشركون الأجداد والآباء .

ومنهم : من يشركون الملوك والسلاطين .

ومنهم : من يشركون الكهان والأحبار .

ومنهم : من يشركون الأشجار والأحجار .

ومنهم : من يشركون الكواكب والنجوم .

ومنهم : من يشركون النار .

ومنهم : من يشركون الليل والنهار .

ومنهم : من يشركون القيم الزائفة والرغائب والأطماع .

ولا تنتهى أنماط الشرك وأشكاله . . و ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .

بينما : الدين القيم واحد لا يتبدل ولا يتفرق ، ولا يقود أهله إلا إلى الله الواحد ، الذى تقوم السماوات والأرض بأمره ، وله من فى السموات والأرض ، كل له قانتون .

---

(١) سورة الروم : ٣١ - ٣٢ .

وإذا كان ذلك كله هو بعض لمحات الدلالة المستفادة حول آية الفطرة فى الدين .

فماذا عن الحديث؟

حديث الفطرة فى الدين ؛ المقارنة لقانون الفطرة فى الإنسان ؟؟

حديث الفطرة

خلاصة القول فى تفسير هذا الحديث : ما ذكره الإمام الحافظ [1] فى الفتح - بما خلاصته -

وأشهر الأقوال : إن المراد بالفطرة : الإسلام.

قال ابن عبد البر : وهو المعروف عند عامة السلف .

وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى ﴿ فِطْرَةَ الله الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ : الإسلام ، واحتجوا بقول أبى هريرة فى آخر حديث الباب : اقرأوا إن شئتم ﴿ فِطْرَةَ الله الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ وبحديث عياض بن حمار عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه « إِنِّى خَلَقْتُ عِبَادِى حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، فَاجْتَالَتْهُم الشَّيَاطِين عَنْ دِينِهِم » الحديث . وقد رواه غيره فزاد فيه « حُنَفَاءَ مُسْلِمِينَ » ورجحه بعض المتأخرين بقوله تعالى : ﴿ فِطْرَةَ الله ﴾ لأنها إضافة مدح ، وقد أمر نبيه بلزومها ، فعلم أنها الإسلام .

وقال ابن جرير : قوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ ﴾ أى سدِّد لطاعته ﴿ حَنِيفًا ﴾ أى مستقيما ﴿ فِطْرَةَ الله ﴾ أى صبغة الله أى خَلْقهم ثم يقول : ﴿فطرة الله التى فطر الناس عليها﴾ إلى قوله : ﴿القيم .﴾ وظاهره من الحديث المرفوع ، وليس كذلك بل هو من كلام أبى هريرة ؛ أدرج فى الخبر ، بينه مسلم من طريق الزبيدى عن الزهرى ولفظه : (ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم)

---

(١) المراد به : الإمام ابن حجر فى كتابة فتح البارى بشرح صحيح البخارى.

قال الطيبى : ذكر هذه الآية عقب هذا الحديث يُقوِّى ما أوله به حماد بن سلمة من أوجه .

أحدها : أن التعريف فى قوله « **على الفطرة** » إشارة إلى معهود، وهو قوله تعالى : ﴿ **فطرة الله** ﴾ ومعنى الأمر فى قوله : ﴿ **فأقم وجهك** ﴾ أى اثبت على العهد القديم .

ثانيها : ورود الرواية بلفظ « **الملة** » بدل الفطرة و« **الدين** » فى قوله ﴿ **للدين حنيفا** ﴾ هو عين الملة ، قال تعالى : ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ ويؤيده حديث عياض المتقدم .

ثالثها : التشبيه بالمحسوس المعاين ؛ ليفيد : أن ظهوره يقع فى البيان مبلغ هذا المحسوس .

قال : **والمراد** تمكن الناس من الهدى فى أصل الجبلة ، والتهيؤ لقبول الدين ، فلو ترك المرء عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها ، لأن حسن هذا الدين ثابت فى النفوس ، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد . . . انتهى .

وإلى هذا مال القرطبى فى « المفهم » فقال : المعنى أن الله خلق قلوب بنى آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول ، وعلى تلك الأهلية : أدركت الحق ، ودين الإسلام هو دين الحق .

وقد دل على هذا المعنى بقية الحديث حيث قال : « **كما تنتج البهيمة** » يعنى أن البهيمة تلد الولد كامل الخلقة ، فلو ترك كذلك كان بريئا من العيب، لكنهم تصرفوا فيه بقطع أذنه ـ مثلا ـ فخرج عن الأصل، وهو تشبيه واقع ، ووجهه واضح ، والله أعلم .

وقال ابن القيم : **ليس المراد بقوله** : « **يولد على الفطرة** »أنه خرج من

بطن أمه يعلم الدين ، لأن الله يقول : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتهم لا تعلمون شيئا** ﴾

ولكن المراد: أن فطرته مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبته .

فنفس الفطرة تستلزم الإقرار والمحبة ، **وليس المراد:** مجرد قبول الفطرة لذلك لأنه ، لايتغير بتهويد الأبوين ـ مثلا ـ بحيث يخرجان الفطرة عن القبول ، **وإنما المراد** : أن كل مولود يولد على إقراره بالربوبية ، فلو خلى وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره ، كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من ارتضاع اللبن حتى يصرفه عنه الصارف ، ومن ثم شبهت الفطرة باللبن ، بل كانت إياه فى تأويل الرؤيا . والله أعلم [1]

ومن هنا : فإن القول بأن (الإسلام : دين الفطرة) : يصبح قانوناً عقدياً : لا يؤمن بالإسلام من يشك فيه .

كما وأنه ـ فى اعتقادنا ـ لا يحترم عقله وإنسانيته : من يرفضه ، أو يحاول الطعن عليه . .

لكننا ـ معاشر المسلمين ـ **أمرنا ألا نحمل الناس على ما نعتقد صحته** ، وألا نلزمهم بما نؤمن بصدقه : **إلا بعد الإقناع بالحجة . . وإبراز الحقيقة** واضحة الدلالة ، بينة المعنى ، ناصعة الجوانب :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ ﴾ [2] .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ؟ ﴾ [3] .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان . . لمحمد فؤاد عبد الباقى جـ ٣ ح ١٧٠٢

(٢) سورة البقرة : ٢٥٦

(٣) سورة يونس : ٩٩

منهج المسلم فى عرض فكرته :

شأننا مع الناس : أن نعرض ما لدنيا عرضا بسيطا ؛ لا تعقيد فيه . . سهلا ؛ لا تكلف معه . . عملاً بقوله تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (١)

وهذه ـ ولا شك ـ رائعةٌ من روائع هذا الدين التى تفرد بها عن كل ما عداه من النِّحَل والمِلَل ؛ أنه يصل بعقيدته إلى الوجدان عن طريق واحد : وهو الإقناع العقلى ؛ وإن استخدم فى ذلك شتَّى الحواس والمدركات المادية والمعنوية فى إطار الكون ؛ بشتىء أنماطه وصوره ، للوصول إليه

خلا شىء واحد لا يصنعه الإسلام ـ بل ولا يقره ـ : وهو عنصر الإكراه المادى أو المعنوى لحمل الناس على اعتناقه .

الأمر : الذى يمكن أن يُقَرِّب إلى عقولنا معنى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (٢) !

نعم هكذا . . . إن الدين عند الله الإسلام . . على سبيل القصر ، والحصر الذى يعم . فهو ـ وحده ـ الدين الحق المرضِىُّ ، المقبول . . حتى قال الفيلسوف الإنجليزى : « برناردشو » فى إحدى كتاباته عن الإسلام : (هو دين المستقبل) (٣) .

وهو ما انتحاه أحد أعلام المفكرين الغربيين : « باول شاميتز » محذراً أوربا من انتشار الإسلام وسيادته ، ومنبهاً إلى خطورة دولته ؛ إذا

---

(١) سورة النحل : ١٢٥
(٢) سورة آل عمران : ١٩
(٣) راجع : أوضح التفاسير لابن الخطيب

ما استتمّت ، وتوافرت لها مقوماتها ؛ التى يُقيمُها القرآن عليها ، ويُنمّيها بها ، فى كتاب كامل . أسماه : (المستقبل للإسلام) .

ولسنا ـ فى الحقيقة ـ نستشهد بهذه المقولات المنصفة فى الحكم ، أو النابعة من الخصومة والكيد : على أنها هى أدلة قضيتنا ؟ .

كلا . وإنما لأنها أثر من آثار ما أخبرنا به القرآن الكريم من إعجاز هذا الدين . وأن خصومه سوف يرون فى يوم من الأيام ـ رغم كيدهم له ، وكفرهم به :ـ إنه ـ وحده ـ هو الدين الحق الذى لا يصلح عند العرض على الله ما تصلح الدينونة بغيره ، كما أنه ـ وحده ـ الدين الذى لا تصلح الحياة بسواه ! !

يقول جل شأنه : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ؟؟ ﴾ (١)

من دلالة قوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾

واضح من السياق القرآنى : أن قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالآية السابقة عليه وهى قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٢) .

يقول صاحب الظلال فى ذلك ما خلاصته :

هذه هى الحقيقة الأولى التى يقوم عليها التصوّر الاعتقادى فى الإسلام . حقيقة التوحيد : توحيد الألوهية ، وتوحيد القوامة : القوامة بالقسط . . .

---

(٤) سورة فصلت : ٥٣ (٢) آل عمران : ١٨

على أن الأمر ـ كما يبدو من متابعة السياق ـ أعمق من هذا وأدق ؛ فإن شهادة الله سبحانه : بأنه (لا إله إلا هو) مسوقة ـ هنا ـ ليساق بعدها ما هو من مستلزماتها ، وهو : أنه لا يُقبل إذن من العباد إلا العبودية الخالصة له ، المتمثلة فى الإسلام ؛ بمعنى الاستسلام ؛ لا اعتقاداً أو شعوراً فحسب ـ

ولكن ـ كذلك ـ عملا ، وطاعة ، واتباعاً للمنهج العلمى الواقعى ؛ المتمثل فى أحكام الكتاب

ومن هذه الناحية : نجد كثيرين فى كل زمان يقولون : إنهم يؤمنون بالله . ولكنهم يشركون معه غيره . . حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره ، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه ، وحين يتلقون التصورات ، والقيم ، والموازين ، والأخلاق ، والآداب ، من غيره .

فهذه كلها : تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله

إلى أن يقول :

وتدبير الله لهذا الكون ، ولحياة الناس ، متلبس دائما بالقسط ـ وهو العدل ـ فلا يتحقق العدل المطلق فى حياة الناس ، ولا تستقيم أمورهم : استقامة أمور الكون ؛ التى يؤدى كل منها دوره فى تناسق مطلق مع دور كل كائن آخر . .

لا يتحقق هذا إلا بتحكيم منهج الله الذى أختاره لحياة الناس ، وبينه فى كتابه . . وإلا . . فلا قسط ولا عدل ، ولا استقامة ولا تناسق . . ولا تلاؤم بين دورة الكون ودورة الإنسان . .

وهو الظلم إذن . . والتصادم . . والتشتت . . والضياع . . !!

وها نحن أولاء نرى على مدار التاريخ : أن الفترات التى حكم فيها كتاب الله ـ وحدها ـ هى التى ذاق فيها الناس طعم القسط ، واستقامت

حياتهم استقامة دورة الفلك ـ بقدر ما تطيق طبيعة البشر؛ المتميزة بالجنوح إلى الطاعة ، والجنوح إلى المعصية . . .

وأنـه حينما حكم فى حياة الناس منهج آخر من صنع البشر : لازمه جهل البشر وقصور البشر ، كما لازمه الظلم والتناقض فى صورة من الصور : ظلم للفـرد ، أو ظلم للجماعة ، أو ظلم الجماعة للفرد . أو ظلم طبقة لطبقة . أو ظلم أمة لأمة . أو ظلم جيل لجيل .

وعدل الله ـ وحده ـ هو المبرأ من الميل لأى من هؤلاء . . وهو إلهُ جميع العباد ، وهو الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء .

ـ ثـم يقـول :ـ

ألوهيةٌ واحدة !!!

وإذن : فدينـونَـةٌ واحدة . . . واستسلامٌ لهذه الألوهية لا يبقى معه شىء فى نفوس العباد ولا فى حياتهم خارجاً عن سلطان الله

ألوهية واحدة !!!

وإذن فجهـة واحـدةٌ هى صاحبـة الحق فى تعبيد الناس لها ، وفى تطويعهم لأمـرها ، وفى إنفاذ شريعتها فيهم وحكمها ، وفى وضع القيم والموازين لهم ، وأمرهم باتباعها وفى إقامة حياتهم كلها وفق التعليمات التى ترضاها .

ألوهية واحدة !!!

وإذن فعقيدة واحـدة : هى التى يرضـاهـا الله من عباده : عقيدة التوحيد الخالص الناصع . . **ومقتضيات التوحيد** . . هذه التى أسلفنا ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [1] !!

---

(١) راجـع كتـاب فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب جـ ١ عند تفسير الآيات المـذكـوره من سورة آل عمران (بتصرف) آية : ١٨ ، ١٩ .

الإسلام .. وتحقيق التكامل والانسجام

ومن خصائص الإسلام : ـ كذلك ـ أنه يحقق الانسجام التام فى كل أطوار أتباعه ومعتنقيه : دون أن تجد فيها تناقضاً ، أو نشاذا ، أو أنفصاماً فى حين من الأحيان :

انسجام الذات : الذى يجمع بين كل تطلعات العقل ، وأشواق الروح ، وميل العواطف ، ورغبات الغريزة ، وطاقات الجسد

إذ لا تناقص على الإطلاق فى الإسلام بين هذه الطاقات الكامنة فى الإنسان : **الذى يمثل فى حقيقة تكوينه ربطا عجيبا** ، وتمازجاً رائعا **بين الملأ الأعلى** : المتمثل فى أشعة الروح ، **والملأ الأدنى** المتمثل فى التراب الذى تكون منه الجسد

بين امتداد العلم ـ المستمد من المكنون الإلهى ـ المتمثل فى العقل بكل ما شتمل عليه من معانى التطلع ، والمعرفه . **وبين لهب العواطف وجموع الغرائز** . وجميع العلاقات الموجودة فى الكون ، والنواميس السارية فى الوجود كله .

حتى قال بعضهم :

دواؤك : فيك ، وما تنظر ... وداؤك : منك ، وما تبصر
وتحسب أنك جِرْمٌ صغيرٌ ... وفيك انطوى العالم الأكبر ؟

وانسجام الذات مع الغير . . وذلك أنه يؤلف بين كل بنى الإنسان فى إطار أخوة لا تعرف الفرقه ، وتعاون لا يعرف الحَرَب .

إذ كلهم فى الحقيقة أبناء رجل واحد ، وامرأة واحدة . ومردهم جميعا ـ فى الأصل ـ إلى مصدر واحد كما يقول بعضهم :

الناسُ فى مبدإ التصوير أَكْفَاءٌ ... أبوهُمو : آدم ، والأم : حواءُ
فإن يكنْ لهمو من أَصْلهِمْ شَرَفٌ ... يُفاخِرونَ به : فالطينُ والماءُ

ومن هنا فقد كان فى محكم القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (١)

كما يؤلف بين بنى الإنسان من ذوى العقيدة الواحدة ، والرسالة الواحدة ، بعقيدة الإيمان ، ورسالة التوحيد ؛ إذ أن هؤلاء يزيدون على أولئك بتكاليف التعاون من أجل رفعة المبدأ وسيادة الحق ، وابلاغ الرسالة :

ومن هنا جاء قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾

هكذا بصيغة الجزم والتأكد البليغ .

ثم وحدةُ الرَّحمِ والقُربى :

تلك الوحدة التى تَدْنُو وتَعْمُقُ حينا حتى توجب على صاحبها خفض ﴿ جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ (٢)

وترق وتصفو حتى تجعل الجنة تحت أقدام الأمهات .

والتى تتسع وتنمو حتى تشمل جميع الأرحام والقرابات ، وتجعل إحدى أمارات فساد الذمم ، وانهيار الأمم : أن تضيع رحمهم ، أو أن تبتذل قرابتهم : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٣)

وانسجام ـ أيضا ـ مع العوالم العاقلة فى الكون ، وإن خفيت عنا رؤاها ، وغابت عن إدراكنا أشباحها ، ويَعقد بيننا وبينها ميثاق الألفة والتعامل ، أو الحيطة والتحصن . .

فالملائكة : معنا . . ويحافظون علينا ، وهم أيضا ـ أحد عناصر رقابتنا وتسجيل أعمالنا

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

(٢) سورة الإسراء : ٢٤ .

(٣) سورة محمد : ٢٢ .

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ (١)

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (٢)

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٣)

والجن : عالم يعايشنا ويلابسنا ويتعامل معنا :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (٤)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (٥)

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٦)

ثم ، وحدة مع الكون الذى يعيش فيه ، ويتعامل معه ، ويحيا عليه فالأرض : ـ لنا ـ أم قبل أمهاتنا اللائى ولدننا ، وهى أمُّنا من بعدهن : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (٧)

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ (٨)

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ (٩)

---

(١) سورة الأنعام : ٦١ .
(٢) سورة الرعد : ١١ .
(٣) سورة ق : ١٨ .
(٤) سورة الأعراف : ٢٧ .
(٥) سورة الأعراف : ٢٠١ .
(٦) سورة النحل : ٩٨ ـ ٩٩ .
(٧) سورة طه : ٥٥ .
(٨) سورة طه : ٥٣ .
(٩) سورة النمل : ٦١ .

ولئن كانت الأرض منشأً ، ومهداً ، وقراراً ، ومأوى ؛ فإن السماء سقف مزين محفوظ ، لا يخاف الإنسان منه التشقق ولا السقوط .

إنه ليس لها عمر افتراضى ـ عندنا ـ

وإن كان لها عمر ـ قدرى ـ عند خالقها . . لا نعلم من موعده إلا أنه يومٌ تطوى فيه السماء ﴿ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ (١)

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (٢) ؟

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (٣)

ثم إن هذا العالم المادىّ من حولنا من أجلنا ـ بفضله تعالى ـ خُلِقَ . . والأحياء كلها ـ فيما نرى ـ بمنه تعالى . . من أجلِنا وجدت ، ولمصلحتنا تبقى !!

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (٤)

ومن هنا : كانت المصالحة الدائمة فى حياة المسلم بين كل مجالاته وآفاقه :

إنها المصالحة .

بين الروح والجسد . .

وبين العقل والعاطفة . .

وبين الانسان والكون . .

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٤ .

(٢) سورة ق : ٦ .

(٣) سورة الأنبياء : ٣٢ .

(٤) سورة الجاثية : ١٢ ـ ١٣ .

وبين المسجد والمجتمع . .
وبين الدين والحياة . .
وبين الزهد والعمل . .

وصـدق الله العظيـم :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ (١)

﴿ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ ﴾ (٢)

﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ . . . ﴾ (٣)

ومن هنا : فنحن الآن أمام هذا الدين فى آفاق ثلاثة هى :

أولهـــا : أفق الإيمان الناشى عن دليل يورث اليقين
ثانيهـا : أفق الشريعة التى تحقق السعادة ، وتوافق الفطرة
ثالثهـا : أفق الدعوة التى تلتزم الإقناع ولا تعرف الإكراه والبطش

وذلك كله . هو ما شملته فى جملته آية واحدة فى كتاب الله تعالى حيث يقول : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ (٤)

حتى قال ابن عباس رضى الله عنه :

أكمل الله لهم الدين : فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً
وأتمه : فلا ينقصه أبداً
ورضيه : فلا يسخطه أبداً (٥) .

---

(١) سورة السجدة : ٧ .
(٢) سورة التغابن : ٣ .
(٣) سورة الملك : ١٤ .
(٤) سورة المائدة : ٣ .
(٥) تفسير ابن كثير سورة المائدة .

To: www.al-mostafa.com

أفــق الإيمــان

حقيقة اليقين ودرجاته :

الباحث المنصف يستطيع أن يدرك فى وضوح ويسر : أن إيمان المسلم ـ الذى يصل به إلى درجة اليقين ، والذى يجسد فى وجدانه المعرفة الصادقة ؛ التى تصل به إلى التصديق التام ؛ الذى لايشك معه ولا يستريب ، وإلى الإذعان الكامل : الذى لا يضعف ولا يلين ـ إنما يقوم على مجموعة محددة من القواعد :

القاعدة الأولى : الإيمان اليقينى

لايتم الإيمان إلا إذا كان ناشئا عن يقين وجدانى ثابت ، بحيث لا تؤثر فيه عوامل الشك ، ولا تُزحزحه عنه تيارات الحيرة ، والاضطراب :

ودرجة اليقين ـ هذه ـ يقسمها أهل المعرفة والبصر إلى ثلاثة أقسام هى :

* ـ علم اليقين
* ـ عين اليقين
* ـ حق اليقين

ويشير إلى الأول والثانى معا قوله تعالى : فى سورة التكاثر :

﴿ . . . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (١)

كما يشير إلى الثالث قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ

---

(١) سورة التكاثر: ٥، ٧

مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (١) .

ويمكن التقريب للقسمين الأولين بالتمثيل بشخص لم يذهب ـ مثلا ـ لزيارة البلد الحرام : مكة ، ولم ير الحرم . . ولم يشاهد الكعبة . .

إلا أنه يؤمن إيمانا لا يخالجه شك : بأن فى الوجود بلداً اسمه مكة وفيه مساحة ـ ما ـ تسمى الحرم وفيه : بناء يسمى الكعبة . . وإذا ما ذكرت هذه الأسماء : جالت بخاطره صورة ذهنية لها، وهى ما يسميه المناطقة : (التصور) .

ولكن هذه الصورة قد تكون فيها بعض ملامح الحقيقة ، وقد لا تكون . .

المهم : إنه لايمكن إقناع عاقل ما . بأنه لاتوجد هذه المسميات فى الأرض . . ويؤمن بها إيمانا بدهياً ضرورياً لايخالجه الشك بحال من الأحوال .

وذلك ـ ولاشك ـ علم . .

وهو فى نفس الوقت علم يقينى يعنى : ليس علما ظنيا ، أو متوهماً ، أو مشكوكا فيه . .

وهو مايسمى : علم اليقين .

لكن عندما يذهب الشخص إلى تلك البقاع ويراها معاينة ، ويستطلع على الواقع ملامحها وأوصافها ، فإنه ينضم إلى ذلك ماسبق كونه لديه من العلم اليقينى ، بحيث عندما تذكر تلك البقاع ـ أو بعضها ـ فإنما

---

(١) سورة الواقعه: ٨٨ ـ ٩٦

تقفز الصورة الحقيقة التى رآها إلى صفحة الذهن ، لا يشك فيها ولايستريب . .

وذلك ـ ولاشك ـ أمر جديد أضيف إلى العلم اليقينى ، وهو ما تم اكتسابه بالمشاهدة الفعلية المستيقنة ، وهو مايسمى : بعين اليقين .

ولذلك جاء فى تفسير قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ . . ؟

قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن

قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ الآيات . . [1]

قال العلماء فى ذلك : إن سبب سؤال إبراهيم هذا إنما كان لمنازعة النمروذ له فى الإحياء . . فقال ذلك : لانه أحب أن يعلم ذلك علم عيان . . بعد علم الاستدلال . .

وقوله : (ليطمئن قلبى) معناه :

يعنى ليزداد يقينا إلى يقينه

أو أنه أراد : رؤية العين . . لارؤية القلب[2]

فالامر ـ هنا ـ ليس شكاً فيما سأل عنه ؛ وإنما كما يقول الماوردىّ فى تفسيره : فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعنى ليزداد يقينا إلى يقينه . هكذا قال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير والربيع ، ولايجوز : ليطمئن قلبى بالعلم بعد الشك لأن فى ذلك كفرا لا يجوز على نبى

---

(١) سورة البقرة: ٢٦٠

(٢) راجع تفسير الماوردى لهذه الآيات .

والثانى : أراد ليطمئن قلبى أنك قد أجبت مسألتى ، واتخذتنى خليلا كما وعدتنى . وهذا قول ابن السائب .

والثالث : إنه لم يرد رؤية القلب ، وإنما أراد رؤية العين . قاله الأخفش .

وجماع الأمر فيما مهد به الماوردى لذلك كله بقوله : فإنه أحب أن يعلم ذلك علم عيان بعد علم الاستدلال .

وقد جاء فى مختصر تفسير ابن كثير : أنهم ذكروا لسؤال إبراهيم ـ عليه السلام ـ **أسبابا ، منها** : أنه لما قال للنمروذ : (رَبِّىَ الذى يُحيى ويميت) : أحبَّ أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين . وأن يرى ذلك مشاهدة . فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ (١)

فأما الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **نحن أحق بالشك من إبراهيم اذ قال : رب أرنى كيف تحيى الموتى . قال : أولم تؤمن قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى** »

فليس المراد ـ هنا ـ بالشك ماقد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف ـ .

كما أن موسى ـ عليه السلام ـ عندما طلب الرؤية كان ذلك نفس غايته من السؤال إذ قال :

﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾

وقد أجيب إبراهيم ـ عليه السلام ـ هنا إلى بعض ما أراد . . بعد

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٠ .

سؤاله عما أراد بمسألته هذه : **لأنه يدخل من حيث المبدأ تحت حدود الإمكان المادى**

ولكن لما كان مطمح موسى ـ عليه السلام ـ **فوق القدرة المعتادة** . . وخارجاً عن إطار الإمكان المادى بكل الأوصاف والتصورات لم تكن إجابة . . ولا سؤال عن المراد . . **وإنما الجواب القطعى المباشر بعدم الإجابة** ، مع ضرب المثل له على تعذر هذه الرؤية فى الدنيا ، إذ قال له جلّ شأنه : ﴿ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ! ! ﴾ (١)

وقد نقل الماوردى من أقوال العلماء فى ذلك : أنه كان يعلم ذلك بالاستدلال فأحب أن يعلمه ضرورة .

وقال السدى وأبو بكر الهُذلى : لما كلمه وخصه بهذه المرتبة : طمحت همته إلى رتبة الرؤية وتشوق إلى ذلك . فسأل ربه أن يريه نفسه

وقال الزجاج : شوقه الكلام فَعِيلَ صبرُه ، فحمله على سؤال الرؤية . . (٢)

وقال صاحب الظلال : إننا لفى حاجة إلى استحضار ذلك الموقف الفريد فى خيالنا ، وفى أعصابنا ، وفى كياننا كله . .

فى حاجة إلى استحضاره لنستشرف ، ونحاول الاقتراب من تصوره ، ولنشعر بشىء من مشاعر موسى ـ عليه السلام ـ فيه ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ ﴾ (٢)

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٣

(٢) سورة الأعراف : ١٤٣

إنها الوهلة المذهلة ، وموسى يتلقى الكلمات من ربه ، وروحه تتشوق ، وتستشرف ، اشتياقاً إلى مايشوق . . فينسى من هو؟ وينسى : ماهو؟ ويطلب مالايكون لبشر فى هذه الأرض ، ولا ما يطيقه بشر فى هذه الأرض . . يطلب الرؤية الكبرى . وهو مدفوع فى زحمة الشوق ، ورفعة الرجاء ، ولهفة الحب ، ورغبة الشهود ، حتى تنبهه الكلمة الحاسمة : (لن ترانى) . .

وإذا كان العلم اليقينى من الأمور المدركة لأصحاب العزائم الصلبة ، والهمم الباصرة

فإن اليقين العينى إنما هو أمر ممكن فى الدنيا لمن مكن الله لهم من زمامه ، وأحلهم فى الذروة الرفيعة من عباده ، وهيأ لهم بواسع فضله وعظيم كرمه من جليل مقامه .

أما الحق اليقينى : فهو أمر لم يتحقق مثله فى الدنيا إلا لنبينا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج

والخلاصة : أنه لابد لكمال الإيمان من العلم اليقينى الناشىء عن المعرفة ، والقائم على قوة الاستدلال وعظمة البرهان . .

ولذلك : قطع فريق من العلماء بأن إيمان المقلد فى العقائد لايصح ، وأنه لاينجى صاحبه من النار ، ولايدخله الجنة . .

وإنما لابد ـ عندهم ـ من أن يكون الإيمان ناشئا عن معرفة ، قائما على الاستدلال . . ولو فى أبسط صوره النقلية أو العقلية

ذلك اليقيـن : لايمكن أن يكون عفوياً ، وإنما لابد أن يقوم على النظر والمعرفة ، حتى يتمكن المسلم عن طريق هذا النظر من الوصول إلى الحكم اليقينى ، البَدَهى ؛ فى أدق مسائل العقيدة ، والتى لايمكنُ إدراكها بالمقاييس المادية المباشرة . حتى عُرِفت بالأمور الغيبية . والتى تمثل المقياس الحقيقى لمعرفة عمق الإيمان . . ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (١)

ولا شك أن أدق جوانب هذا الاعتقاد وإنما تبدو فى مسألتين : هما :

* ـ الإيمان بالله تعالى
* ـ الإيمـان بالبعث . .

وكلاهما أمر خارج عن حدود الإدراك المادى ، والعلم العادى ، أو الإدراك العقلى . المباشر . .

ومن هنا : جاءت عقيدة الإسلام لتفتح نوافذ الفطرة فى الإنسان : على مجالات الفطرة فى الكـون : بما يحقق بالنـظر ، والمقارنة ، والتمثيل بالمتشابه فيه تارة ، وبالمختلف تارة أخرى : إلى إدراك المعنى الدقيق الذى يحقق : يقين العلم عنده ، واستقرار الوجدان لديه . تلك الدلائل الثابتة التى ترشد إلى :

أولا : أنه يستحيل وجود هذا الكون بما هو عليه من دقة وإحكام من غير صانع ! !

كما وأنه يستحيل أن يستمر فى وجوده وحركته من غير مدبر ! !

وأن هذا الصـانـع المـدبـر لابـد أن تتحقق فيه كل صفات الكمال

(١) سورة البقرة : ٣

اللانهائى : إذ لابد منها لكى يوجد هذا الكون . كما وأنه لابد منها لتدبير أمره وبقاء صلاحه . .

وثانيا : أنه يستحيل ـ عقلا ـ أن يكون كل هذا الإبداع والإتقان منتهيا إلى عدم . . أو مصنوعاً بغير غاية تتسم بالبقاء والاستمرار المناسبين لعظمة الصنعة وحكمة الصانع . !

القاعدة الثالثة : حقيقة النظر . وحدوده

لا بد من رسم مناهج النظر، وطرائق التفكير، وذلك حتى لايسير هذا الإنسان على غير هدى ، أو أن يسلك فى تفكيره مسالك قد تؤدى به إلى الهلاك وسوء العاقبة . .

ذلك : أن قوة الإدراك العقلى مهما كانت جسامتها ، وأيا كانت قدرتها :

هى قوة مصنوعة، لها حدود تقف عندها . . ومنزلة لاترقى إلى ماوراءها . .

أرأيت ـ مثلا ـ إلى الباصرة : إنها تختلف لديها درجات الرؤية من إنسان لآخر ؛ قوة وضعفاً . وذلك أمر طبيعى . .

لكن كل الأعين الباصرة تأتى إلى حد معين وتقف عنده كلية ، عاجزة عن الإبصار ، وتحديد الأشياء ، ويبدو ذلك فى مجالات عديدة . . من حيث المسافة : بعداً وقرباً ، ومن حيث قوة الضوء : زيادة ونقصا . . ونحوه . .

وهكذا العقل . . له أن يسبح فى مجالات الكون المادى : ـ علوا وسفلاً ـ ليبحث فيه ، ويتدبر أمره ، ويدرك من علاقاته مايسر له

استخدام مافيه من موجودات ، والإفادة بمافيه من خيرات ومنافع ، تحقيقا لرسالة : الاستخلاف ، وأداء لواجب الأمانة . .

ولكن عندما يندفع العقل الإنسانى إلى البحث فيما وراء الطبيعة ، أو البحث عن حقيقة الصانع ، يخرج بذلك عن مجالات قدرته وآفاق رسالته ، وهنا يكون قد أشرف ـ بيقين ـ على خضم هو عاجز ـ بيقين ـ عن السبْح فيه ، وسيواجه قوة من النور المشرق تصيبه بالانبهار أو العشى ، بدلا من أن تكون له سببا للاستكشاف وإدراك الغاية

ويتفرع عن هذه القاعدة : مايمثل تحديداً لهذه المناهج التى رسمها الإسلام للنظر والاستلال :

المناسبة لحدود فطرته

والموافقة لمستوى قدرته

والمحققة لرسالته وغايته

والميسرة لنفعه وسعادته : فى دنياه وآخرته

مناهج النظر والاستدلال للإنسان :

يمكننا بالتأمل الدقيق أن نحصر مجالات النظر فى ثلاثة مناهج هى :

* ـ التدبر فى آيات الله تعالى القرآنية
* ـ التدبر فى آياته الكونية
* ـ التدبر فى أياته الزمنية

القاعدة الرابعة : انسجام الآيات وتضافرها

ولعله من روائع الإعجاز فى هذا الدين : أنك لاتجد تناقضا ـ أبداً ـ بين القوانين القرآنية ودلالاتها ، وبين القوانين الكونية وعلاقاتها ، أو بين القوانين الزمنية وسننها . . أو بين ذلك كله والإنسان . .

ولئن كان ذلك أمرا معجبا بالمقارنة إلى المناهج والملل الأخرى . . فإنه لدى المسلم أمرٌ طبيعيٌ للغاية . .

ذلك : أن خالق الكون بكل آفاقه وأجرامه : إنما هو خالق الزمن بكل أطواره ومتغيراته . .

وهل الزمن إلا إفرازا طبيعيا لسنن الكون ؟ وأثرا مباشراً لما أودعه الخالق الواحد فيه من ضوابط وسنن ؟

إذ ليس تعاقب الليل والنهار : إلا نتيجة مباشرة لجريان الشمس والقمر ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ (١)

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

ثم إن الذى خلق الأكوان ، وأجرى الزمان : هو ذاته الذى أنزل القرآن ، وخلق الإنسان . .

ومن هنا : كان الإنسان ممثّلا بتكوينه الفطرى خلاصة هذا الكون . . منطوياً فى ذاته على جماع خصائصه . . وهو ـ والحالة هذه ـ جزء طبيعى فى فطرة هذا الوجود . . ثم جاء القرآن الكريم مُنزلاً عليه . . هادفاً إلى هدايته ، مرشداً له إلى صلته بالكون ومكانه المنطقى فيه !!

فلا خصومة على الإطلاق بين الإنسان . . . والكون . . . والزمان

كما أنه لا تناقض ـ البتة ـ بين القرآن والكون . والزمان .

---

(١) سورة الفرقان : ٤٥ ، ٤٦

(٢) سورة يونس : ٥

ولعله من النماذج المعجزة فى هذا الربط ، والانسجام بين هذه الآفاق ـ كلها ـ مايشير إليه قوله تعالى :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ :
عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ
خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ . . عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ . .
ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ، وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ، وَٱلسَّمَاءَ رَفَعَهَا . . وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ
أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ ، وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ
وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ
وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ . .
فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . . . ؟ ﴾ (١)

نعـــم هكـــذا :

ذَكر الخالقَ

ثم ذكر القرآن : الذى هو صفته

وهو المنهج الذى أنزله ، ويسر للناس علمه . .

ثم الإنسان الذى جاء القرآن لهدايته ، ورَسْم منهج سعادته ، ومصدراً لعلمه

ثم الحديث عن الكواكب ، والفضاء ، والسماء

مع الربط بين القانون الأسْمى ؛ الذى قامت به السموات والأجرام ، وبين المنهج الذى ارتضاه الله لعباده وصلاح خلقه ؛ قانون العدل الذى لايحيف ولايجور

ثم الحديث عن الأرض : مسكن الإنسان ، ومنزل القرآن ، ومسرح

---

(١) سورة الرحمن : ١ ـ ١٣

المنهج ، الذى أراد منزله أن يكون ميزانا عادلاً ، وصراطا مستقيما .

مع الإشارة إلى ما أودعه فيها من نعم ، وما سخر فيها من خير ؛ كله لمصلحة الإنسان وفائدته وإصلاح شأنه . .

أليس ذلك مما يشير إلى روعة هذا الترابط والتناسق العجيب فى هذه الصنعة المتألقة والمتحدة فى المصدر ، والحركة ، والغاية ؟ .

وصدق الله العظيم :

﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ . . !! ﴾ (١)

على أن هذا الانسجام الفطرى لايقف عند حد ما أسلفنا من المصالحة بين الإنسان وهذه الموجودات . .

وإنما نجد إلى جانب ذلك صورة أخرى أكثر جلالة ، وإشراقا : هى أن القرآن يدفع الإنسان دفعاً قوياً إلى التفاعل مع شتى عوالم الكون ، والتعامل معها ، بتسخيرها ، وتصريف شئونها ، والاستفادة بها . .

ويلفت نظره إلى أنها خلقت من أجله .

وأنه تعلم ـ وهو فى صلب أبيه الأول آدم ـ عليه السلام ـ الأسماء التى تعنى منذ تكوينه إدراك علاقاتها ، وفهم أسبابها :

وهل هذه الأسماء . . إلا معرفة الأشياء معرفة حقيقة ، وخواص ، وثمراتٍ ، ومنافع ، وأضرار . . ؟

يقول تعالى فى ذلك :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . ؟؟

---

(١) سورة الملك : ٣

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ
فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ
قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (١)

فتعليم الأسماء : (إلهامه معرفة كل شيء يحتاج) (٢)

أو تفهيمه بكل مايجرى فى هذا الكون من نواميس ، وسنن ، وعلاقات ، وأسباب ، ومنافع (٣)

ويقول جل شأنه :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ
وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ
وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ
وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ
وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ
وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا
إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ !! ﴾ (٤)

فالآيات كلها نص صريح وتحريض واضح - لايحتاج إلى مزيد - لكى

---

(١) سورة البقرة : ٣١ - ٣٣
(٢) أوضح التفاسير لابن الخطيب
(٣) راجع كتاب آدم عليه السلام : للبهى الخولى .
(٤) سورة إبراهيم : ٣٢ - ٣٥

يندفع هذا الإنسان المستخلف فى الأرض . . والذى خلق الكون المادى من أجله ، والذى أذِنَ له الخالق فى كلامه القدسى فى استثماره واستغلاله

الأمر الذى لايحتاج إلا إلى أن يدفع ما وهبه الله من عقل ، وما زوده به من حواس إلى استكناه كل ماحوله ، وكل مايقع تحت طائلة عقله وحواسه ، ليجعل منه مطية ذلولاً لسعادته الدائمة : فى الدنيا والأخرة

ويدل عليه قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (١)

وإن هذه الأية لتدل دلالة واضحة على مايلزم أن يكون عليه المسلم من العلم الذى يملك به اجتياز الآفاق ، وتذليل الصعاب ، واستكشاف المجاهيل ، وتسخير الطاقات الكامنة فى كل ما يعود عليه بالنفع العاجل والآجـــل .

ذلك أن المنكِب هو أعلى مافى المرء ، وأصعب ما ينال منه . . وقد قيل :

ومن لايحب صعود الجبال . . . يعش أبد الدهر بين الحفر

ومن هنا : فأشد ما يألم له المسلم اليوم :

ـ أن ينسى المسلمون هذه التعاليم .

ـ وينسوا معها تاريخهم المجيد ، الذى أسس فيه علماؤهم قواعد العلم ، وقوانين المادة ، وضوابط التصنيع فى شتى المجالات والآفاق

ـ وأن يصبح قانون الاستكشاف ـ فى أرضهم ـ قصراً على غيرهم ، ووقفا على من سواهم

---

(١) سورة الملك: ١٥

ـ وأن يعودوا إلى استجداء ما صُدّر من كنوزهم ؛ من مصادر الطاقة والمواد الأولية : ليستوردوه مُصَنَّعًا من غيرهم بما يفرضه عليهم من ثمن ، مادى أو معنوى . . !!

ـ وليصبحوا بعد ذلك فى كل شئونهم عالة على من سواهم ، وماانتهى بأمة الإسلام إلى أن تعتبر سوقا رائجة للاستهلاك لا مجال فيها للانتاج . ومجالا للتدمير، لا للابتكار .

لقد أقنعوا أمتنا بأنها لاطاقة لها على الإبداع ، ولاحاجة بها إلى الاختراع وبذل الجهد ، وحسبها أن تمد يدها إليهم ؛ ليأتيها من عندهم كل شىء

حتى الثوب : مخيطا

والغذاء : مطهيا

ورحم الله العرب الأوائل الذين اعتبروا أنكى ما قيل فى الهجاء :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها . . واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

من القاعدة إلى التطبيق

نحن الآن أمام تلك الأسباب التى تصل بالمرء إلى معرفة تحقق له حسن الإيمان وصدق اليقين .

وقد قلنا ـ فيما سبق ـ انها تتلخص فى منهج النظر المتدبر فى آفاق ثلاثة . هى : القرآن ، والكون ، والزمن .

ولئن كان القرآن الكريم هو مصدر الهداية إليها جميعا ! وأن هذه الآفاق ـ جميعها ـ إنما توصل إلى الغاية العظمى . وهى الهداية المحققة للسعادة . فإن أسلوب التقسيم لها . إلى آفاق . . وكل أفق إلى زوايا ـ ونحو ذلك ـ مما يوجبه التحليل العلمى فليس إلا رغبة فى توضيح المراد وبيان أوجه العبرة ، وتيسير المأخذ وحسن الاستفادة .

كالدواء . . يعمل أثره فى إصحاح البدن ونفى العلة : مجتمعا .
وهو فى حقيقته باقة من الأعشاب والعقاقير !
فليس بدعاً أن يوصف ـ كله ـ تعاطيا . . .

وأن يوصف تركيبه فى مجال البحث والتجربة مجزأً ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١)

المنهج الأول : التدبر فى الآيات القرآنية :

وهو منهج يمكن إدارك حقيقته وحدوده مما يلى :

أولا : أن التدبر فى آيات القرآن الكريم ليس أمراً مستحباً فقط . وإنما هو : أمر وجوبى لازم لكل من آمن به . .

(١) النحل : ٦٠

وهو فى نفس الوقت أمر ملازم لرسالته .
إذ يقول الله تعالى :

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (١)

ثانيا : أن كل مجالات التدبر الموصلة إلى حقيقة الإيمان منضوية حقيقة ، وواقعاً : تحت دلالات القرآن الكريم .

بمعنى : أن الآيات القرآنية مشتملة على هداية الإنسان إلى التدبر فى الآيات الكونية ، والآيات التاريخية ؛ على السواء وبنفس مستوى الدعوة إلى التدبر فى النصوص القرآنية الصرفة ، للوصول إلى الغاية ذاتها .

ثالثا : ان هذه الأيات ـ التى سوف نعمد إلى الاستدلال بها ـ وأمثالها من كتاب الله تعالى **إنما تتجه بالعقل المدرك إلى التصديق الثابت والإيمان المستقر** : بالله تعالى وصفاته العالية ، وإلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه عن طريق مقارنة غيبيٍّ : بمشهود ، ومجردٍ : بمادى ومحسوس . .

ومن هنا فسنرى ذلك المزج العجيب الرائع فى هذه الإشارات المشرقة من كتاب الله المعجز

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٢)

ومن أمثلة هذه الآيات الدالة على الإيمان :

أولاً :الآيات التى ترشد إلى وجود الله تعالى :

استدلالا بالأثر على المؤثر . وبالفطرة الموجودة بالفعل على الفاطر الموجد لها .

---

(١) سورة ص : ٢٩ .
(٢) سورة فصلت : ٤١ ـ ٤٢ .

إذ أنه ـ بالضرورة ـ لابد لكل موجود من موجد ، قادر على الصنعة ، خبير بها ، مصرف لها :

ويشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ؟؟

أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ؟؟

أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[1]

وبَدَ هى : (أن الإنسان لم يخلق نفسه ، ولم يخلق أولاده ، ولم يخلق الأرض التى درج فوقها ، ولا السماء التى يعيش تحتها .

والبشر الذين ادعوا الألوهية لم يكلفوا أنفسهم مشقة ادعاء ذلك .

فمن المقطوع به : أن وظيفة الخلق ، والإبراز من العدم : لم ينتحلها لنفسه إنسان ، ولا حيوان ، ولا جماد .

ومن المقطوع به كذلك : أن شيئا لا يحدث من تلقاء نفسه فلم يبق : إلا الله)[2]

وبالتالى : فإنه إذا كانت البداهة تحكم بالعجز المطلق عن ذلك فى عالم العقلاء . . . فإن الكون بكل ما يموج به من أجرام ، وما ينضبط به من سنن ، كالسماء . والأرض ـ وهى عوالم غير عاقلة ـ أكثر عجزا عن أن تُوجِدَ نفسهَا . .

والإلزام ظاهر بيِّن :إذ أننا لم نشارك فى صنعها ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾[3]

فلا يبقى بعد كل ألوان الاستقراء إلا شىء واحد وهو :

الاذعان بأن هذا الوجود . لابد له من موجد . . وهو الله .

وذلك الحكم هو ما أدركه البدوى الأمى بفطرته معبراً عن قناعته به

---

(١) سورة الطور : ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) عقيدة المسلم : الشيخ محمد الغزالى

(٣) سورة الكهف : ٥١ .

فى حدود ثقافته التى يملكها ، وقاموسه اللغوى الذى يدرك مراميه ـ إذ قال :

البعـــرة : تدل على البعير ،

وآثار الأقدام : تدل على المسير

فسمـــاء : ذات أبراج !

وأرض : ذات فجاج !

وبحار : ذات أمواج !

ألا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير . ؟؟

ولئن كان هذا الأعرابى قد وصل إلى ذلك عن طريق هذا الاستقراء فإن ثمة صورة أخْرى قد تكون ذات دلالة بالغة فى الحكم ؛ على أن هذا القدر من الإيمان لا يحتاج العاقل ـ أيا كانت مداركه ـ لكى يصل إليه : إلا إلى أن ينظر فى مرآة فطرته ليحكم به دون تردد أو التباس .

روى أبو داود عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ .

أن رجلا أتى النبى ﷺ بجارية سوداء . فقال : يا رسول الله . . إن على رقبة مؤمنة .

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أين الله ؟ »

فأشارت إلى السماء بإصبعها

فقال لها : « فمن أنا؟ »

فأشارت إلى النبى وإلى السماء

تعنى : أنت رسول الله

فقال : «أعتقها فإنها مؤمنة »[1]

---

(١) أخرجه أبوداود ، وفيه عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودى ، وقد رمى بالاختلاط لكن يشهد له حديث معاوية بن الحكم ، بنحوه إلا أنه لم يذكر فيه (الاشارة) وإنما التعبير بقولها : فى السماء وبقولها : أنت رسول الله . وقد أخرجه مسلم ومالك فى الموطإ ، وأبو داود والنسائى فيتقوى به (جامع الاصول بتحقيق الأرناءوطى جـ١ ص ٢٢٩ ، ٢٣٠

ولكن هذا الدليل وإن جاء فيما بعد فى صور شتى ـ معقدة ـ سواء فيما يتصل بالمجال الفلسفى : كدليل الكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، والغزالى وغيرهم .

أو بالمجال العلمى : كالأدلة الناشئة عن البراهين المخبرية وغيرها ، وهكذا

ولكن يبقى شىء واحد :

وهو أن الجميع : ينتهون به إلى قانون واحد ؛ هو قانون الفطرة ، الذى جاء به دليل الأعرابى . ولم يستطع أحد أن ينقضه منذ قاله الأعرابى . . وحتى اليوم . .

ثانيا : الآيات التى تدل على وحدانيته تعالى : متفرداً فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله .

ولقد كانت هذه الفكرة غير بالغة مكانها فى العقل ، حتى جاء الإسلام مبينا ، ومؤكداً كل ما سبقه به الرسل من قبل ،شارحاً ، وموضحا ؛ كل ما التبس عليهم منها .

ومن هنا : فقد قال مشركو قريش لرسول الله ﷺ :

انسُب لنا ربك

فأنزل الله هذه السورة [1] يعنى قوله تعالى :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾ [2]

ثالثا : ومنها الآيات الجامعة للصفات المتعددة ، والكمالات الوفيرة ، وذلك كما فى قوله تعالى

---

(١) أخرجه الترمذى والحاكم وابن خزيمة (راجع : تفسير الماوردى ، وأسباب النزول للسيوطى)

(٢) سورة الأخلاص

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (١)

فإن الناظر فى هذه الآية يجد أنها قد جمعت ثلاث عشرة دلالة ليس فيها إلا ما تقره الفطرة ، ويصدقه العقل ، ويثبته العلم والتجربة .

ولـذلـــك :

فإن دعوة الرسول ﷺ اعتمدت على إذكاء حس الفطرة فى الإنسان ، عن طريق آيات القرآن الكريم يصدع بها ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما أمره ربه تعالى :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢)

ومن هنا ـ أيضا ـ : فقد تحددت وسيلته ، صلى الله عليه وسلم فى إبلاغ دعوته :

بعرض القرآن :

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ ﴾ (٣)

وكما تحددت غاية الدعوة فى عرض مفاهيمها ، ومناهجها ، ومناظرة الخصوم فى شأنها : بإسماعهم القرآن :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤)

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٥ .

(٢) سورة الحجر : ٩٤ .

(٣) سورة النمل : ٩١ ـ ٩٢ .

(٤) سورة التوبة : ٦ .

وقد أثبت الاستقراء اليقينى : أن كل الذين سبقوا إلى الإسلام وبادروا إليه ، وكل من لحقهم فيه : لم تكن استجابتهم إلا عن طريق ما وصلوا إليه من قناعة مطلقة بما استمعوا إليه من القرآن . . **وأن آية الإعجاز ـ فيه ، وحده ـ** كافية لذلك ـ سلفا ـ كما أنها هى آية الإعجاز لهذه الملة ـ خلفا ـ . . ودائماً وأبداً إلى يوم الدين .

التدبُّر فى الآيات الكونية
وقانون الخلق

ثانيا : التدبر فى الآيات الكونية :

ينضم إلى مائدة الفكر عامل آخر : هو عامل النظر فى كتاب الكون المحسوس ؛ بكل آفاقه الواسعة ، وقوانينه الصادعة .

وبدهيٌّ : أن هذا الجانب ليس منفصلا عن السابق أو مبايناً له . .

وإنما هو متفرع عنه ومصدق لما جاء به . .

وحسبنا أن نعرض ـ هنا ـ فى بعض إشارات الكتاب (المقروء) : إلى ما يلزم من التدبر والاعتبار ـ عن طريق بعض النماذج ـ فى هذا الكتاب (المنظور)

وسنجد : أن القرآن الكريم يعرضها فى إطارات محددة ، لا مجال لعقل عاقل إلى نبذها . .

لو تفرغ لها بالنظر ـ ولو فى أدنى مراحله ـ

وأفرغ ما فى وجدانه من عوامل التبعية ، والوراثة ، والتقليد ، والعناد

ويمكننا أن نعرض من هذه الأُطُرِ بعض مالا بد منه وهى :

أولا : أن حديث القرآن الكريم عن مظاهر الكون ، لم يسلك المنهج التجريبى المعملى لأمور : ـ منها ـ

■ أنه كتاب هداية وإرشاد بالدرجة الأولى ؛ وليس كتاباً يعرض ظواهر المادة ، وقوانين العلم

■ أن القرآن يخاطب جميع العصور، والمواطن ، والمستويات العقلية ، والثقافية ، والفكرية

ونظريات العلم : إنما تقوم على التراكم

وقوانين الماده : إنما تقوم على الملاحظة ، والتتبع ، والتجربة ، ثم الانتهاء إلى القانون

وليست كل الأجيال التى يخاطبها القرآن على مستوى المقدرة لاستيعاب ذلك ، أو حتى مجرد التصديق به .

■ **أن هذه القوانين التجريبية** : لا بد أن تمر بمرحلة من التكذيب ، أو عدم الاقتناع ، ثم تصبح فيما بعد قانونا مُسلّما به . .

وليس باللائق بهذا القرآن أن يكون محلاً للتصديق أو التكذيب فيما لم يصل العقل العام إلى الاقتناع به .

ولكنها اذا ما انتهت إلى درجة القانون الصحيح :

فلا بد أن تكون مصدقة لما جاء فى القرآن الكريم

كمثل : كروية الأرض ـ وقوانين السحاب ومكوناته ـ

وعلم الأجنة ـ وعلم البصمات وغيرها .

أو على الأقل لا يمكن أن تصطدم به ، أو أن تتناقض معه

ثالثا : أن القرآن الكريم : يتناول قضايا المادة تناولاً فريداً

فلا يذكرها إلا مثالا **يجدُ العالِم العبقرى فيه** بغيته العلمية، وما يشبع عنده نَهمة البحث وطموحات النظر

ويجد فيه الأمى : حاجته من الاقتناع والبصر . .

كل ذلك مع التنويع فى القوانين ، والتعدد فى الأساليب والصور ؛ التى يصل بها الناظر إلى صدق الإيمان ، وثبات اليقين ، وتمام الإذعان .

والتى ترجع ـ كلها ـ فى النهاية لأصل واحد عام هو مبدأ الفطرة :

ومن ذلك على سبيل المثال ما يأتى :

قانون الخلق

هو قانون يتدرج فى القرآن الكريم تدرجاً رائعاً :

حيث يعرض الله تعالى فى كتابه أسس الفطرة ، وأصول النشأة ؛ بما لا يتناقض مع ناموس ، العلم ، ولا يتعارض مع قناعة العقل . . وبحيث

يُصبح القدر الكافى من القناعة ببداية الخلق ، مفهوماً لديه ، وإن كان الأمر فيه خارجاً عن طاقته :

■ لأنـه غيب ، وليس من الممكن إدراكه إلا عن طريق مظاهره حتى فى أدق أمثلة التقريب والتمثيل . .

■ ولأنه من اختصاصه تعالى وحده .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١)

والشاهد فى هذه الآية الكريمة :

أن طموح الخليل إبراهيم عليه السلام فى رؤية كيفية الخلق . . لم يصل به إلا إلى رؤية نموذج تقريبى لمظهر الخلق ؛ على وسيلة إيضاح هى : أربعة من الطير ، مفرقة الأجزاء ، مقسمة الأشلاء ، موزعة على قمم جبال أربع . . وفقط ! !

وذلك على الحقيقة هو مبلغ ما يمكن أن تصل إلى علمه طاقة بشر! أما حقيقة الخلق الكامن فى قوة الإرادة ، وعظمة الحكمة . . ؟

وأمـا سريان أثـر الإرادة والحكمـة ، وإحداث التوصيل بين الأجزاء المتماثلة فى الأكداس المختلطة .

وأما سريان تيار الحياة فيها . . وما حقق بينها التداعى ، والالتئام ، والاستواء ، والحركة . .

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٠ .

فذلك كله لم يقع تحت ما هو مدرك ـ على الحقيقة ـ فى التجربة ، ولم يترك فى نفس الوقت بدون إجابة .

وإنما تضمنه قوله تعالى : ﴿ واعلم : أن الله عزيز حكيم ﴾
واذا كان ذلك كله فى :

مثل شخص إبراهيم عليه السلام : الذى وصف بأوصاف تفرد بها ؟!
- ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ (١)
- ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢)

- ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (٣) ؟؟ -

وفى مثل موقف إجابة ربه لدعائه الطموح ؟؟ -

وفى مثل هذا الأنموذج المحدود عدداً ، وحجما ، وزمانا ، ومكانا ؟؟
فكيف يكون حال الإنسان : الآخر ؟؟

فيما يتعلق بدراسة الكون . ؟ وخلق الكون ؟

ولنترك الإجابة على ذلك لأهل التخصص فيه . . والعمل من أجله . .

لأولئك الذين أفنوا أعمارهم فى دراسة المادة ، والتطلع إلى معرفة جديد . . مفيد . . ـأو حتى غير مفيد ـ للدارس فى حدود عمره الزمنى ، أو عصره .

---

(١) النجم : الآية ٣٧ ، وانظر ارتباط الآية بما قبلها ودلالتها على الغيب ، من أسرار لا يمكن أن يصل إلى علمها إلا الله تعالى ، اذ يقول جل شأنه : ﴿أعنده علم الغيب : فهو يرى ؟ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ؟ وإبراهيم الذى وفى . ؟ ﴾ الآيات
(٢) راجع قراءة الآيات من ١٢٠ إلى ١٢٣ ـ من سورة النحل
(٣) سورة النساء : ١٢٥ .

ولا يدرى : هل يمكن للناس أن يفيدوا منه فيما بعد أو لا ؟

يقول زهير الكرمى : ـ

وحتى نفهم الكون الجديد ، يتعين علينا أن نعرف بدقة موقع الإنسان من هذا الكون ، وعلاقته به .

فالأرض (الشاسعة الواسعة) ـ موطن الإنسان وبيئته ـ :

ليست فى حقيقة الأمر : إلا كوكبا ، سياراً ، صغيراً ، من تسعة كواكب تدور حول نجم الشمس .

وهناك بلايين ـ الشموس أو النجوم ـ فى مجرتنا : التى هى واحدة من بلايين المجرات مثيلاتها فى كون فسيح ، إلى حد يصعب تصوره وتخيل مداه . .

وقد كان الإنسان فى دراسته للأفلاك فى الماضى : يستخدم مفاهيم عرفها ، واستخدمها بنجاح على الأرض .

ومن هذه المفاهيم : الحجم ، والمسافات ، والكتل ، والجاذبية ، والخصائص : الفزيائية ، والكيميائية : للمادة ، وتركيب المادة فى أسسه الذرية . .

ـ ثم يقول : ـ

والإنسان معذور فى ذلك .

فحجمه ، وكتلته ؛ مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بحجم الأرض وجاذبيتها .

وكذلك ترتبط قوته بالجاذبية الأرضية .

وتبعا لهذا : كانت جميع نشاطاته ذات ارتباط ، ونسبة رياضية إلى كتلة الأرض ، وجاذبيتها . .

فأدواته التى استعملها كامتداد لأعضائه : كان ـ لا بد ـ أن تكون من حجم معين .

وبناياته التى ابتناها لسكناه : كان لابد أن تكون [ذات] [1] علاقة بحجمه هو . .

وحتى حركته على الأرض : ارتبطت بنسبة ثابته بجاذبية الأرض.
(حتى إذا ما تحرك على سطح القمر ـ مثلا ـ كانت حركته مضطربة ، غير ما تعود عليه فى الأرض ، وذلك : لاختلاف الجاذبية)

إلى أن يقول : ـ أيضا ـ

يقول عدد من العلماء : **بأن الفيزياء المخبرية كما نعرفها على الأرض** : **مملة** .

لأن مفاهيمها تتشكل ، وتؤخذ قياساتها باستعمال أنظمة مادية : ذات حجم عادى . .

ونعنى بالحجم العادى : المتناسب مع حجم الإنسان ، وقدرته على تداولها .

كما أن قطع المادة التى يتداولها الإنسان فى (الفيزياء المخبرية) : خاملة بالقدر الذى تكون به أيّة مادة على الأرض خاملة .

وكذلك نستعمل تشبيهات ، لتقريب الفكرة إلى أذهاننا : تكون مستقاة من الأمور العادية من حولنا .

وإذا كانت (الفيزياء المخبرية) لهذه الأسباب : **مملة** . .
فإن من الطبيعى أن تكون (الفيزياء الكونية) : **صعبة** ـ وصعبة جداً ـ

---

(١) فى الاصل : ذى .

لاختـلاف المعايير والأسس التى درجنا عليها والتى بها نستطيع : تصور مفهوم ، أو إدراكه . . .

ولنأخذ أمثلة توضح ذلك :

(فالمتر) : مقياس (إنسانى) أرضى جيد

ولـو قسمنـاه إلى مائة قسم : ينتج عندنا (السنتيمتر) الذى هو : مقياس (مخبرى) نموذجى

فلو قسمنا (السنتيمتر) على (10^8) (مائة مليون) : حصلنا على قطر نموذجى (للـذرة)

ولو ضربنا (السنتيمتر) فى نفس العدد (10^8)(مائة مليون) : لحصلنا على قطر (القمـر)

ولـو ضربنـا (قطر القمـر) بنفس العدد : (مائة مليون) : فإننا نحصل على حوالى (قطر النظام الشمسى) .

ومـرة آخرى :

لو ضربنا (قطر النظام الشمسى) بنفس هذا العدد ـ (يعنى مائة مليون) ـ : لو صَلنا إلى ما يقارب بعد (السحب الماجلانيه) وهى أقرب جَارٍ كَوْنِىٍّ لمجرتنا ؟ ؟ !!

ـ ثم يقول :ـ

ومن الصعوبات التى تصادفنا فى دراسة الكون :

أننا لانملك أن نمسك بِعَيِّنَةٍ من مادته لفحصها كما هى عادتنا .

وعلينا ـ على البعد الشاسع ـ أن نقنع بما نستطيع استخلاصه من أدلة (غير مباشرة فى معظمها) بالوسائل المتاحة لنا .

كما أن علينا : أن نعيش مع فيض من (الفَرْضِيَّات) التى افترضت ؛ من أخذ بعض هذه الأدلة . غير المباشره . ومحاولة بناء نموذج رياضى : افتراضى . لما يمكن أن تكون عليه هذه الأجرام .

وذلك بمتابعة التسلسل المنطقى الرياضى للظواهر والمعلومات المتوفرة لنا [1] ! !

تعذر معرفة حقيقة الخلق

ومن هنا نستطيع أن ندرك بجلاء ، ويقين :

أن الوصول إلى معرفة حقيقة خلق الكون : أمر فوق منال العقل البشرى . . وإن سمحت له طموحاته أن يحاول دراسة الأمر من حوله ، وأن يبحث عن إدراك المجهول من آفاق المادة .

وكلما أدرك من ذلك شيئا . . أو بلغ فى مسعاه شأوًا :

جاء من العلم ما يكشف له : أنه ما يزال يحبو فى مدارج المعرفة ، قاصراً عن بلوغ بعض معالم الحقيقة الكبرى :

وصدق الله العظيم :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [2]

لكن القدر الذى انتهى إليه العلم ـ بما أصبح من الأمور البدهية التى ليست محلاً لخلاف أو جدل ـ :

أن هذا الكون العظيم ـ كله ـ لابد أن يرجع فى أصل مادته التكوينية إلى قدر مشترك بين جميع أجزائه . . . وإن اختلفت مظاهر التكوين

---

(١) راجع : كتاب الكون والثقوب السوداء : إعداد رءوف وصفى ، مراجعة : زهير الكرمى . ص ٨ إلى ١٦ (المقدمة لزهير الكرمى) اقتباساً .

(٢) سورة الإسراء : ٨٥ .

وخصائصه فى بعضها عن البعض الآخر ، أو تميز بعضها بقوانين جزئية - أو فرعية - قد لاتكون بارزة فيما عداه .

وأن الأرض : إن هى إلا كوكب يسبح فى فضاء هذا الكون اللانهائى . وإن تميزت بطبيعة - خاصة - ونواميس - خاصة - كذلك .

وأن الإنسان : ما هو إلا جزء من هذه الأرض : تحكمه قوانيها ، وتناسبه طبيعتها ، وخصائصها . .

ولكنها : **جميعاً** - فى النهاية - **منضبطة بسنن ثابته ، وقوانين محكمة** ؛ لاتتغير ولاتتبدل .

فماذا يكون شأن القرآن الكريم تجاه قانون الخلق فى ذلك كله ؟

لا شك أن منهج التتبع (العكسى) : قد يكون أكثر قربا إلى فهم الموضوع مما لو سلكنا إلى المسألة مسلك البداية، الذى أجمع العلماء على صعوبة فهمه جدا

- كما أشار لذلك النص الذى أسلفنا الإستئناس به - .

بالإضافة إلى خطورته على عقل الإنسان وعقيدته .

وأول ما تكون البداية فى هذا المنهج : إنما تبدأ من عندنا نحن ؛ أى من بداية الإنسانية . .

قصة الوجود الإنسانى :

الإنسان : هو أسمى الكائنات الأرضية على الإطلاق - غير منازع - فما هى قصته ؟ ؟

لانشك : فى أنه لم يكن موجوداً . . ثم وجد . .

ومن تتبع حبل الجنس البشرى : إبتداء منا ، فلسوف ينتهى - يقينا - إلى أبى الجنس البشرى آدم عليه السلام .

وحتى من شط بهم غرور العلم ـ إلى محاولة الربط بين الجنس البشرى وأجناس أخرى ؛ فى مثل نظرية « النشوء والارتقاء » : لم يدم لهم غرورهم ـ وردَّت النظرية من أساسها بنفس المنهج العلمى إبَّانَ ظهورها ، وبعْدَه .

وبقى الحبل البشرى ـ بإجماع العقل الصالح ، والنقل الصحيح : مبدوءاً بآدم ـ عليه السلام .

حتى ليقول أبو العلاء المعرى ـ فى عرضه لنظريته ؛ الرامية إلى وقف امتداد الجنس الإنسانى ؛ لفلسفةٍ مالت به عن منهج الفطرة ، وخيالاتٍ فكريةٍ استهوته : ـ

تواصلَ حبلُ النسلِ ما بين آدمٍ وبينى . فلم تُوصَل بِلاَمىَ باء !!

وإذ قد علمنا : أن آدم هو بداية هذا الجنس : فلا شك أنه أُوجِدَ مِن عَدَم ، وأوجِدَت معه السننُ التى تحققُ التكاثر والنمو ، حتى وصل الأمر إلى ما نشهده ونعيشه فى حياتنا .

وهنا نجد قانون الفطرة فى القرآن : قد عمل على راحة العقل ـ لو أراد ـ إذ يحكى لنا فى إيجاز ، وإعجاز ؛ القصة : بدءاً من العدم ، ومروراً بمراحل التكوين العادى ، وانتهاءً بمرحلة التكليف والجزاء ، إذ يقول :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (١)

ولئن كان ذلك يعنى ـ الإنسان فى جنسه المتكرر ـ فهو إشارة : إلى أن الجنس ـ كله ـ فى أصله . . لم يكن شيئا مذكوراً . . . . ثم كان . .

---

(١) سورة الإنسان : ١ .

وتأتى إجابة السؤال عن كيف كان ؟ فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ (١)

كما يحدثنا عن كيفية الخلق فى الإنسان . . وأنّه : لم يكن تطويراً ، وترقياً من حالة جنس أدنى . . وإنما كان على هيئته من التمام والكمال فيقول :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٢)

ويشير إلى بيان ذلك مارواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قـال :

« خلق الله آدم على صورته ، طوله : ستون ذراعاً .
فلما خلقه قال : اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس ، فاستع ما يحيونك ، فإنها تحيتك ، وتحية ذريتك .
فقال : السلام عليكم .
فقالوا : السلام عليك ورحمة الله . فزادوه : ورحمة الله .
فكل من يدخل الجنة على صورة آدم .
فلم يزل الخلق ينقص ـ بعدُ ـ حتى الآن» .

ثم إن بداية التكوين الإنسانى تأتى صريحة واضحة فى قوله تعالى :
ـ حكاية عن مشهد الخلق فى الملأ الأعلى : ـ

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ

---

(١) سورة الإنسان : ١ .
(٢) سورة فواتح سورة التين .

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (١)

ويقول أيضا :ـ

﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ . .

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢)

وإذن : فقصة خلق الإنسان هى :

ماء وتراب ، حوّل إلى طين . . ثم حول إلى : حمإ مسنون ، ثم إذ به يتحول ـ بفعل صانعه ـ إلى : صلصال . كالفخار .

ثم تأتى مراحل : التسوية . فنفخ الروح . . فالتكريم الذى لايساميه تكريم ، والتمكين الذى لا يلحقه سواه : ـ.

إنه إسجاد الملإ الأعلى لتكريمه : فقعوا له ساجدين

والاستخلاف فى الأرض : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٣)

والرفعة على كثير من أنماط الخلق :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ

وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (٤)

الإنسان .. جزء من عالمه الذى يعيش فيه :

ثم يأتى : الربط العام بين الجنس الإنسانى والأجناس الأخرى كما فى قوله تعالى :

---

(١) سورة الحجر : ٢٨ ـ ٢٩ .

(٢) سورة ص : ٧١ ـ ٧٢ .

(٣) سورة البقرة : ٣٠ .

(٤) سورة الإسراء : ٧٠

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (١)

وفى قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (٢)

ثم يأتى بيانُ جماعِ الأمر كله فى قوله تعالى :

﴿ الذى جعل لكم الأرض : (مهداً) وسلك لكم فيها سبلاً ، وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ـ كلوا ، وارعوا أنعامكم ـ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . !!

منها : (خلقناكم) !!

وفيها : (نعيدكم) !!

ومنها : (نخرجكم تارة أخرى﴾ !!

وهنا تظهر الحلقة (المنشودة) لا : الحلقة (المفقودة) التى عجز عن أن يدركها فلاسفة النشوء والارتقاء وهى : (الأرض)

بمعنى : أن الانسانَ وكلَّ ما عداه من أجناسٍ : تدبُّ بالحياة على الأرض :

إنما هم جزء منها .

وإذن : فما هى قصة الأرض ؟

وقصة الأرض ... أيضا ـ

الأرض : ذلك الكوكب العجيب . . الذى يمثل حلقة الاتصال بين الإنسان وبقية الأكون :

---

(١) سورة الأنعام : ٣٨

(٢) سورة الأنبياء : ٣٠

فالأرض ـ أصلا ـ هى منشأ الإنسان ، ومصدرُ وجوده المادىِّ ، ومجال حركته :

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (١)

وهى فى نفس الوقت : مملكته ، ومجال عِمارته ، واستثمارِ مواهبه :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٢)

وإن كانت ـ فى نفس الوقت ـ إقامتُه عليها ـ حياً ـ رحلة عمل واستمتاع لابد لها من نهاية :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٣)

وهى ـ أيضا ـ مستودَعُ رزقة ، وخزانة أقواته :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ (٤)

وهى ـ كذلك ـ موطن رسالته وخلافته :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . . ﴾ (٥)

على أن فى الأمر ـ هنا ـ ما يحتاج الى وقفة متأملة ؛ إذ أن الأرض فى نفس الوقت : جزء من الكون

والأرض . جزء من الكون ..

كيف ذلك ؟

إن الأرض ليست فى حقيقتها سوى كوكب من المجموعة الشمسية .

---

(١) سورة طه : ٥٥ .

(٢) سورة هود : ٦١ .

(٣) سورة البقرة : ٣٦ .

(٤) سورة فصلت : ١٠ .

(٥) سورة البقرة : ٣٠ .

وما المجموعة الشمسية إلا باقة صغيرة فى مجرتنا التى هى : واحدة متواضعة ؛ من بين بلايين المجرات فى هذا الكون ؛ الذى لانعلم من أمره ، وحدوده ، وهيئته ، وصفته : إلا قليلا . .

ولنقف ـ لحظات ـ فى محراب العلم : نستجلى بعض مظاهر تلك العظمة المبدعة . . فى مجال الكون الأعلى : من عِبارات يسيرة ، مقتطفة من بعض ملامح البحث عن معالم هذا الكون البديع العجيب :

(كوكب الأرض .. سفينة فضاء)

يقول رءوف وصفى :

كوكب الأرض هو : دنيانا التى نعيش فيها . .
وهو : كوكب صغير . . إلا أنه كوكب غير عادى !! ويوجد فى الطريق (**اللَّبنى**) حيث تقل كثافة النجوم ـ نسبياً ـ على بعد ثلثى المسافة من مركز (مجرتنا) .

كما أنه الكوكب الثالث ـ من الشمس ـ بعد كوكبى : **عطارد** ، **والزهرة** .

ويبلغ قطر كوكب الأرض : نحواً من اثنى عشر الفاً وستمائة كيلو مترا . .

ونحن فوق الأرض : أشبه ما نكون بركاب سفينة فضاء : سقفها : الغلاف الجوى الذى تتعدد وظائفه ، وخدماته . .

وجَوُّ دنيانا : مكيف ؛ بحيث ترسل السفينة وسقفها إلى الفضاء نفس الطاقة التى تكتسبها من الشمس ، فتظل محتفظة بنفس معدلات درجات الحرارة على مر السنين .

وهذا هو السبب فى استمرار الحياة فوق سطحها

ـ ثم يقـول : ـ

وإذا تكلمنا عن كوكب الأرض فى العلوم الكونية ، أو عرضنا لها كجرم سماوى من أجرام الفضاء :

فاننا نقصد بذلك ـ أيضا ـ ما يحيط بها من أغلفة : مرئية كانت ـ مثل المحيطين : اليابس والمائى ـ أو غير مرئية : مثل المحيط الهوائى

ويجب ألا ننسى : أن كوكب الأرض : ـ بجميع أغلفته ـ يدور فى الفضاء بسرعة كبيرة كوحدة لا تتجزأ :

حول نفسه .

وحول الشمس مع باقى الكواكب .

ثم مع الشمس حول مركز مجرتنا . .

ثم مع المجرة التى تتحرك هى الأخرى مع البلاين من المجرات التى يتكـون منها الكون . . إلى مكان مجهول لايعلمه إلا الله ؛ خالقُ الكون ومبدعه . [1] أهـ

إشارة إلى عظمة الكون ورهبته :

ولـلإشـارة إلى مقـدار ما لهذا الكـون من جلال رهيب ، وإبـداع عجيب ؛ فإننا نقتطف بعض دلالات قوانين العلم ، فى صورة موجزة :

فمثلا :

المجرات : هى وحدات الكون العظمى ، وهى تنتشر بجلال . فى أجزاء متفرقة من الفضاء الكونى اللامحدود . ومن ثم : يطلق عليها الجزر الكونية .

---

(١) من كتاب : الكون والثقوب السوداء : رءوف وصفى (٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ اقتباساً)

وهى تتكون من آلاف الملايين من الأجرام السماوية من (سدائم)، ونجوم ، وكواكب ، ومذنبات ، ونيازك ، وغبار كونى ، وغازات . تدور بعضها حول بعض ، وتربطها الجاذبية ؛ فتجعلها وحدة عظيمة متماسكه .

ومجرتنا : تحتوى مجموعَتنَا الشمسيَّة ، بالإضافة إلى (١٣٠ بليون ـ ألف مليون ـ نجم آخر) .

وتقع المجموعة الشمسية على مسافة : حوالى ثلاثة وثلاثين ألف سنة ضوئية من مركز المَجَرةً .

والسنة الضوئية : مقياس طولى ، يستخدم فى قياس المسافات الهائلة بين النجوم ، ويمثل المسافة التى يقطعها الضوء خلال سنة كاملة .

(الضوء يقطع مسافة ثلاثَمِائَة الفِ كيلُو متر ، فى الثانيه) [1] **!!**

وإذ قد علمنا ذلك ، وأنه ليس ـ بالنسبة لما تقطع به قوانين العلم اليوم ـ الإشذرات يسيرة ، ولقطاتٍ عاجلة ـ كما يقرر العلماء أنفسهم ـ **فكيف يتسنى لبشر أن يدرك حقيقة خلق هذا الكون ؟؟**

أو حتى خلق هذا الكوكب اليسير الصغير : الأرض ؟؟

اللهم . . إن هذا أمر فوق المقدرة . . وخارج عن حدود علمنا .
مهما بلغ تفكيرنا . . وأياً ما كانت وسائلنا وإمكانياتُنا . . .

﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ !! ﴾ [2]

وإذاً . . فلا ملجأ لنا نعتمدُ عليه . .
ولا مصدَر تطمئن النفس إليه ـ فى قصة هذا الخلق ـ : **إلا كتابُ الله**

---

(١) المصدر السابق أقتباساً ص ٤٤ ، ٤٥
(٢) سورة البقرة : ٣٣ .

تعالى الذى ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

خلق الكون كما يخبر القرآن ...

ماذا يقول القرآن الكريم فى خلق الكون ؟

إنه يضعنا ـ فى هذا المجال ـ أمام حقيقة الفطرة ، ومنشئها ، وأطوارها على مراتب :

المرتبة الأولى :

هى أن الكونَ كلَّه : ـ عُلوِّيه وسفليَّه ، حيَّه . وجامدَه ، وسماءَه وأرضه ـ إنما يشكِّلُ وحْدَةً واحدة ؛ لكل جزء منها : دورُه فى نظامه ، وعملُه فى قانونه ؛ الذى لاينفصم ، ولا يتخلف .

فحركة الكواكب والنجوم ؛ بكلِّ أنماطِها وأحجامها ومداراتِها : مرتبطٌ بعضها ببعض .

والأرضُ : كوكبٌ من هذه الكواكب ؛ متصلٌ خلقه بخلْقها ، ووجودُه بوُجودِها ، وبقاؤه ، وحياةُ أهله : قائمةٌ على اتصاله بقوانينها .

فقانونُ الجاذبية ، وقانونُ المسافة ، وقانونُ الحركة والدوران ، وقانونُ المدارات والمنازل . . .

ـ كل ذلك وغيرهُ ـ: له عمله ، ووجوده الطبيعى والضرورى فى حياة الأرض وما عليها . وهو جزء من الناموس العامّ فى حركةِ الكون كله . . .

ومن هنا كان حديث القرآن عن خلق الكون جملةً . . كما فى قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ

مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١)

وكقوله جل شأنه :ـ حكاية عن إبراهيم عليه السلام ، وهو فى موقف المناظرة مع قومه ؛ لإرشادهم إلى حقيقة الخلق . والدلالة على الخالق المدبر للكون كله ، المستحق ـ وحده ـ للعبادة دون ما سواه من جزئيات كونه ؛ المملوك له ، والمصرف بقدرته ـ .

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢)

وتارة يكون ذلك مع الإشارة إلى بعض مظاهر الخلق التفصيلية ، كالإشارة إلى تحديد مدة الخلق : كقوله تعالى :
﴿ فى سته أيام ﴾ .

أو إلى تحديد وظائف لجوانب ـ مُدْرَكَةٍ عقلا ، أوحساً وعقلا ـ لهذا الخلق كما فى قوله تعالى :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً
وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا
لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣)

وكقوله تعالى : ـ فى بيان خلق بعض المظاهر الطبيعية ، المتصلة بخلق الكون ـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (٤)

وهكـــذا . . .

---

(١) سورة السجدة : ٤ .
(٢) سورة الأنعام : ٧٩ .
(٣) سورة البقرة : ٢٢ .
(٤) سورة الأنعام : ١ .

المرتبة الثانية :

أن هذا التميُّز والانقسام فى الكواكب ؛ إنما يمثل مرحلة تاليةً فى الخلق ، لمرحلةٍ سابقة عليه : وهى مرحلة الالتئام والاتحاد .

وأن السموات والأرض : إنما كانتا فى الأصل كتلةً واحدة ، فصَرَّفها البديعُ جلَّ شأنه فى أنماط واشكالٍ ؛ اقتضتها حكمته وإرادته . وذلك كما فى قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

ولئن كان المفسرون القدامى ـ رحمهم الله تعالى ـ قد أبدوا فى قوله تعالى ﴿ رتقا ﴾ تأويلاتٍ متعددة :

فإنَّ مايؤكده العلم اليوم : هو ما قاله ابن عباس رضى الله عنه وما قال به الحسن ، وقتادة ، وعطاء ، والضحاك ، وكعب الأحبار

أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ، ففتق الله بينهما بالهواء (٢)

وقال البيضاوى :

أى كانتا شيئاً واحداً ، وحقيقة واحدة ، ففتقناهما بالتنويع والتمييز (٣)

وقال الشيخ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار :

والمعنى : ألم يعلموا أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة ، لافتق فيها ولا انفصال . وهو ما يسمى فى عرف علماء الفلك (بالسديم) . وبلغة القرآن (بالدخان) ففتقناهما : بفصل بعضها عن بعض ، فكان منها ما هو سماء ، ومنها ما هو أرض (٤) .

---

(١) سورة الأنبياء : ٣٠ .

(٢) تفسير الما وردى وهامشه

(٣) البيضاوى جـ٢ ص ٢٧٢

(٤) راجع كتاب : تفسير الآيات الكونيه : د/ عبد الله شحاته ص ١٦٠

المرتبة الثالثة :

أن هذه المجموعة الكونية :ـ كلها ـ من أصل واحد ، يعبر عنها حينا بالدخان كما فى قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (١)

وما يشار إليه تارة بالماء كما فى قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ (٢)

ولئن كانت رحلة العلم منذ بداية الخلق ؛ بحثاً عن أصل مادة الكون لم تصل ـ فيما نعلم ـ حتى اليوم إلى أكثر من نظرية : (السدائم) .

كما أنه لم يصل إلى تفسير لهذا (السَّديم) يمكن الاطمئنان إليه ؛ بأكثر من الأصل الذى أشار إليه القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، وهو الدخان . . والذى يمثل إحدى مراحل الخلق المتدرجة من خلق الماء

مع ماتلزم الإشارة إليه : من أن العلم بكل ما وصل إليه . .لم يستطع الجزم بما توصَّل إليه . .

وأنه مازال يكدح على طريق الفرض والتخيل ، والنظرية . .

إذ ليس فى مُكنته : الحصول على العينة ، التى تخضع للتجارب المخبرية ، والتى يمكن له ـ بعدها ـ أن يصل بالتجربة المتكررة إلى القانون

وإيماننا الذى لايتخلف : أنهم يوم أن يصلوا إلى القانون . . فسوف

---

(١) سورة فصلت : ١١ .

(٢) سورة هود : ٧ .

يكون ذلك مطابقاً لقانون الفطرة الأولى ؛ التى لابد أن تتفق مع ما أشارت إليه آيات القرآن الكريم .

والنتيجة الحتمية : لا إله إلا الله

ومن ثم : ننتهى إلى ذلك القانون البدهىّ ؛ الناشىء من الاستقراء ـ لما نراه ، ونشهده فيما حولنا من هذا الكون ، الذى لا نستطيع بأى مقياس أن نصل إلى مداه : ـ

أنه مخلوق ـ ولابد ـ

وأنه ـ لابد ـ له من خالق مبدع هو الله . .

وأنه : دلالة واضحة على أن : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾

وأن القرآن . . والكونَ : أياتٌ معبِّرةٌ عنهُ ، ودالةٌ عليه .

ذلك القانون البدهى :

هو ما عبر عنه البدائى فى : دليل الأعرابى . . . باعتباره : خطابَ الفطرة .

وما عبر عنه الفيلسوف فى : أدلة عديدة ؛ منها : دليل الكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، والغزالى . . وغيرهم . . باعتباره ، منتهى حصاد العقل .

وهو ما عبر عنه العلماء الماديون . . قديما وحديثاً . . بما يفصح عن الإعجاز البالغ ، والقاهر لهم على التسليم بخالق الكون ، باعتبار أن ذلك : هو خلاصة ما انتهت إليه دراسات المادة فى مراحلها المتتابعة :

حتى ليقول الدكتور جورج إيرل دافيز [1] :

---

(١) الدكتور جورج إيرل دافيز : عالم الطبيعة ـ حاصل على الدكتوراه من جامعة منيسوتا ـ ورئيس قسم البحوث الذريه بالبحرية الامريكيه ببروكلين . ـ أخصائى الإشعاع الشمسى والبصريات الهندسية والطبيعية

لايمكننا أن نثبتَ وجود الله عن طريق الالتجاء إلى الطرق المادية وحدها . . إذ لم يقل أحدٌ : بأن الله مادة ، حتى نستطيع أن نصلَ إليه بالطرق المادية .

ولكننا نستطيع أن نتحقق من وجود الله : باستخدام العقل ، والاستنباط مما نراه .

فالمنطق الذى نستطيعُ أن نأخذ به ؛ والذى لايمكن أن يتطرق اليه الشك هو :

أنه ليس هناك شيء مادىٌّ يستطيع أن يخلق نفسَهُ . .

واذا سلَّمنا بقدرة الكون على خلق نفسه : **فإننا بذلك نصفُ الكونَ بالألوهية**

ومعنى ذلك : أن نعترف بوجود إلّه ، ولكننا نعتبرُه : إلها ؛ مادّيا ، وروحياً فى نفس الوقت ! !

(**يقول**) : **وأنا أفضِّل** : أن أُومِنَ بإلّه غير مادى ، خالقٍ لهذا الكون ؛ الذى تظهر فيه آياته ، وتتجلى فيه أياديه . دون أن يكونَ هذا الكون كُفْئاً له . . .

وأحب أن أضيف إلى هذا الاستدلال ؛ استدلالاً آخر : **وهو أنه كلما ارتقى وتقدم تطورُ المخلوقات** : كان ذلك أشد دلالة على وجود خالق مدبر ، وراء هذا الخلق .

إن التطور الذى تكشف عنه العلوم فى هذا الكون : هو ذاتُه شاهد على وجود الله . ! !

فمن جزئياتٍ ، بسيطة ، ليس لها صورةٌ معينة ، وليس بينها فراغ : **نشأت** ملايين من الكواكب ، والنجوم ، والعوالم المختلفه ؛ لها صورٌ

معينة ، وأعمار محدَّده ، تخضع لقوانين ثابتة : يعجز العقل البشرى عن الإحاطة بمدى إبداعها.

وقد حملت كل ذرة من ذرات هذا الكون ـ بل كلُّ مادة الذرة ؛ مما لايدركهُ حس ، ولايَتصورُ صِغَرَهُ عقل ـ : قوانينها ، وسننها ، وما ينبغى لها أن تقوم به ، أوتخضعَ له . ؟ ! !

هذه أدلة كافية :

ولكن ؛ هنا لك ما هو أشد إعجازاً وأكثر دِلالةً على وجود الله :

فمن تلك الجزيئات البسيطةِ ، لم تنشأ النجوم والكواكب ـ فحسب ـ بل نشأت كذلك أنواع متطورة من الأحياء ؟!! .

بل كائنات : تستطيع أن تفكر ، وتبتكر ، وتخلق أشياء جميلة ؟ !!

بل هى تبحث عن أسرار الحياة والوجود ؟ !!

إن كلَّ ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله . .

وإنها تدل على وجودهِ ، حتى دون حاجة إلى الاستدلال بأن الاشياءَ الماديَّة تَعجَزُ عن خلق نفسها . . [1] **اهـ**

وبعـد

فماذا بقى للدلالة على إثبات وجود الخالق ، الواحد ، العظيم ، بعد تلك الأدله . ؟

اللهم لاشىء . .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [2]

---

(١) كتاب : « الله » يتجلى فى عصر العلم . تأليف نخبة من العلماء الامركيين بمناسبة السنة الدوليه لطبيعيات الأرض ، اشراف : جون كلوفرمونسما ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان ، راجعه : د/ محمد جمال الدين الفندى

(٢) سورة آل عمران : ٨٥ .

وإذا كنا قد أطلنا الوقوف فى هذه الرسالة الموجزة عند دليل الخلق : فلأنه أساسُ الأدلة . . وكلُّ مايليه من الأدلة إنما هو تأكيد له ، أو فرعيٌّ عنه

وإلا فبأىِّ منطق تُقنع بصفات الخالق ، أو صدق الرساله ، أو صدق المنهج : من لم يؤمن بوجود إلّه منذ البداية ؟

ومن هنا : فسيكون عرضنا فيما بعد ، لبقية القوانين الدالة على كمال الإيمان ، وصدق اليقين ؛ على سبيل الإشارة والاقتباس ، والله وحده ولى التوفيق . .

قانـون الحركـة

وقانون الحركة فطرى .. أيضا :

وكما بدأنا بدليل الفطرة فى قانون الخلق ـ مُعَبَّرا عنها ـ على لسان أعرابى يعيش على الفطرة .

فإننا ـ كذلك هنا ـ أمام دليل الفطرة ـ ذاتها ـ فى قانون الحركة . . إذ أن أصدق الأدلة ماكان من نداء الفطرة الأساسية فى الكون . . النابعة من أعماق هذا الوجود . . المفعمة بالصدق والواقعية . . الخالية من كل سمات الصنعة ، أو التكلف . . [1] ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ . !! ﴾ .

ودليل الفطرة ـ هنا ـ يأتينا : رقيقا ، شفافا ، من وراء القرون ، على لسان رجل أمى ، أعيته الحيرة ، وأعوزته الحيلة ، ولم يبق له مايستمسك به سوى نداء فطرته فى الدلالة على ربه . . ذلكم هو : زيد بن عمرو بن نُفيل بن عبد العزى .

الذى كان ـ قبل مبعث النبى ﷺ ـ يسند ظهره إلى جدار الكعبة ، ويخاطب قومه قائلا : « يامعشر قريش . . والله مابقى منكم أحد على دين إبراهيم غيرى !! »

ويتطلع إلى السماء قائلا :

اللهم . . . إنى لا أعرف كيف أعبدك . ولو عرفت الوجه الذى أعبدك به . . . لعبدتك به . !!

وكان يطوف بالبيت وهو يقول :

وأسلمت وجهى : لمن أسلمت ... له الأرض ؛ تحمل صخراً ثقالا
دحاها ، فلما استوت شدها ... سواء ، وأرسى عليها الجبالا

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

وأسلمت: وجهى لمن أسلمت له المُزْن؛ تحمل عذْباً زلالا
إذا هى سيقت إلى بقعة: أطاعت، فَصَبَّت عليها سجالا [1]

فالرجل بفطرته النقية . . يعتمد فى إيمانه على قوانين الفطرة الصادعة وهو فى ذلك مُحِقٌّ ـ كل الحق ـ لِأن كل مانشهده فى هذا الوجود من حركة الهواء ، وجريان السحائب ، ونزول الماء ، إنما تجرى على نواميس محكمة ، وضوابط دقيقة لاتتخلف ، ولاتزول . . .

وبالتالى : هنا فإن قانون الحركة فى هذا الكون : إنما يمثل طائفة من صفات الكمال الألهى العظيمه : كالقدرة العالية ، والحكمة البالغة ، والعلم المحيط ، والرعاية التامة ، وهكذا . . .

وإذا كان العلم قد انتهى إلينا ـ من مراحل بحثه ـ بجملة من السنن الكونية فى مجال الحركة ؛ هى غاية فى الإعجاب . والرهبة ؛ تدعو إلى الخشوع المطلق لمصرف الكون ، والسجود طواعيه له ، وإقراراً بفضله ، واعترافا بعظمته :

يقول العلم :

(**إن سير كواكب مجموعتنا الشمسية فى أفلاكها** : **(دراما)** من أعظم **(الدرامات)** المعروفة للبشر ، وتمثل هذه **(الدراما)** بصفة مستمرة أمام أعيننا . . . وتقوم الشمس فيها بالدور الرئيسى ، بينما تقوم الكواكب التسعة ـ ومن بينها أرضنا ـ بمجرد أدوار مساعدة . . . .

ويتمييز النظام الشمسى بحركاته المتشابهة ؛ فى دوران الكواكب حول نجمها المركزى : الشمس .

فمسارات الكواكب « اهليلجية » أى بيضاوية ، وبعضها يميل نحو

---

(١) راجع : البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ، الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور عبد الحليم محمود .

بعض فى دورانها حول الشمس ، فتكوِّن معاً دوائر مسطحة ؛ شبه متوازيه .

ثم إنها تدور : كبيرها وصغيرها ـ دون استثناء ـ **فى اتجاه واحد** لايتغير حول الشمس . .

ـ إلى أن يقول ـ

. . . ومما يسترعى الانتباه ، ويؤيد تلك الرابطة الأبدية بين أجرام المجموعة الشمسية :

أن ـ هناك ـ تناسقاً فى النسب بين أبعاد الكواكب عن الشمس ؛ **فقد أتضح أن نصف قطر مدار كل كوكب : يعادل ضعف نصف القطر لمدار أقرب الكواكب إليه من ناحية الشمس !!**

ومجموعتنا الشمسية : تكمل دورتها حول مركز مجرتنا مرة كل مائتين وخمسين مليون سنة ، . ويطلق عليها السنة الكونية . . [1]

ويقول : دون الشمس : تبرد الأرض وتتجمد ، وتنعدم الحياة عليها .

ولاشك (أن ما يجعل للشمس هذه الأهمية الفريدة ، المرتبطة بإشاعة الحياة على الأرض ؛ هو تلك النسبة المعينة من طاقة الشمس التى تصل إلى الأرض . . **ومن هذه النسبة الضئيلة** ؛ من الضوء والحرارة التى تستقبلها الأرض من الشمس : يسير موكب الحياة) [2]

وإذا كان ذلك اقتطافاً موجزاً للدلالة على ما انتهى إليه العلم من رصد حركة الكون فى ضخامته ، وقوته ، وروعته :

---

(١) الكون والثقوب السوداء : رءوف وصفى ص ٤٦، ٤٧

(٢) المصدر السابق ص ٤٨

فإن قانون الحركة ـ بأقوى وأدق نواميس المشابهة ، والعظمة ، والانسجام ـ يجرى ـ كذلك ـ فى مجالِ أدَقِّ صور المادة وأبسطها .

يقول العلم :

(وهذا الجذب الهائل ، والانهيار الجذبى : ينقلنا إلى صعوبة تصور مايحدث للمادة . . .

فنحن نعلم من الفيزياء العادية : أن المادة ـ فى أساسها ـ مكونة من ذرات . . وأن الذرة الواحدة : تتكون من (نواة) بها (بروتونات ، ونيوترونات) وهى موجبة الشحنة

ويحيط بها فى مستويات : طاقة ، مقننة : (الكترونات) سالبة الشحنة [تعادل شحنة النواة الموجبة فى مجموعها]

وأن هذه (الإلكترونات) تدور حول النواة بسرعة وكأنها غمامة ، كما أن (الإلكترونات) فى المستويات المختلفة ، تدور متضادة مع بعضها ، فمنها ما يدور مع عقارب الساعة ، ومنها ما يدور عكس ذلك . .) [1]

وإذا . . فإن الكون كله يتحرك !! ويسير !! وفق نظام محكم ، وقانون دقيق ، وعلاقة ضرورية فى كل جزء من أجزائه تربطه بالأجزاء الأخرى !!

وعلى مدى ـ مالا نعلم من الزمن ـ: فالكون يتحرك ، ويسير ، على نظام دقيق . . لم يحدث فيه اضطراب .

والعلاقة المحكمة بين أجزاء الكون ـ بدءًا من الذرة واجزائها . . مع تناهى صغرها ودقتها ، ورهبة الطاقة المختزنة بها ، وإنتهاء بعالم المجرات فى ضخامتها ، وعظمتها اللانهائية ـ لم يطرأ على قوانينها خلل !!

---

(١) مقدمة كتاب الثقوب السوداء : زهير الكرمى ص ١٤ ، ١٥

أليس ذلك ـ وحده ـ دلالة قاطعة على استحالة أن يتم شيء منه ـ فضلا عن كل ذلك ـ بدون مدبرٍ عظيمٍ، قاهرٍ، قادرٍ، حكيمٍ، لا تاخذه سنة ولا نوم ؟

ثم .. أليس ـ ذلك كله ـ تفسيراً لبعض ما تدل عليه الآيات القرآنية ، وهى تشير فى إيجاز وإعجاز : إلى الآيات الكونية ..؟

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ :

أَن تَزُولَا ..

وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (١)

ويقول جل شأنه :

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ

لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ

وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ

وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .. ﴾ (٢) .

ويقوله جل من قائل :

﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (٣)

---

(١) سورة فاطر : ٤١ .

(٢) سورة يس : ٣٨ ـ ٤٠ .

(٣) سورة الملك : ٣ .

تنوع أساليب القرآن فى قانون الحركة

هكذا : الكون كله . . فى حركته المطرده :

متناسق مع الكواكب والنجوم ؛ فى منازلها ومساراتها . .

متوافق مع الذرة فى حركتها واتساقها

والعجيب فى الأمر : أن القرآن الكريم لم يعرض قانون الحركة بنمط واحد . . وإنما عرضه مستقلا ـ تارة ـ كالآيات التى سبقت الإشارة إليها .

وعرضه بآثاره المترتبة عليه ـ تارة أخرى ـ كما فى قوله تعالى :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ
يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى
أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ (١) .

ـ وتارة أخرى ـ يعرضه فى صورة أثره المحسوس الذى يدل عليه ، ويرشد إليه . فى أنماط شتى ؛ كل منها يمثل دلالة واضحة عليه ، ولفتًا قويا منبها إلى حقيقته .

كقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ :
كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا
ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا

---

(١) سورة الزمر : ٥ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا
وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا
وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ
وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا
لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا
وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ (١) .

أرأيت : إلى حركة الظل : مداً ، وانقباضا . ؟ !
وإلى حركة الزمن : اجتماعاً ، وانتشاراً . ؟ !
وإلى حركة الرياح : غُدُوًا ، ورواحًا . ؟ !
وإلى حركة السحاب : تكونًا ، وانتثاراً . ؟ !

وإلى حركة الأرض ، والأنعام ، والإنسان . . خمولاً ونشاطًا ؟؟
وذلك ـ كله ـ ما هو إلا مظاهر محدودة ، لحركة مقننة فى نظام الكون فى جملته ، متفرع فى شتى أجزاء وجوده . . وفى كل أطواره وآثاره .
من تدبرها حق تدبرها ، وأولاها من النظر : ما هى جديرة به :

لابد أن ينتهى من ذلك إلى معرفة حقيقة هذا الكون . . وإدراك خالقه : الحكيم ، المدبر ، القادر ؛ على ذلك التصريف العجيب .
وسبحان الله العظيم
فقد ذكر بعد ذلك مباشرة قوله :
﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا . . ! ﴾ (٢)

---

(١) سورة الفرقان: ٤٥ ـ ٤٩
(٢) سورة الفرقان: ٥٠

قانـون التصـريف

المراد : بقانون التصريف :

ونعنى به خَرْق السنن العامة بصور جزئية ، من خلال قانون خاص ؛ هو إشارة إلى سلطان القدرة القادرة ، والتنويه بعظمة الحكمة البالغة . . وإبراز لسمة الإعجاز فى الصنع الإلهى : الذى لاتحكمه الأساليب النمطية ، والقوالب العادية .

إذ يقول جل شأنه : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١)

فليس أبرع فى القدرة ، ولا أبدع فى الحكمة : من إخراج نماذج غير معتادة ، من الأصل العادى ، وصورة شاذة عن الأصل النمطى

وأن يكون ذلك دون خلل فى السنن ، أو انحراف فى القانون . ؟

أو ـ بمعنى آخر ـ **أن يصبح التغيير** والتنويع من الأصل الواحد المتكافىء : قانونا !!

وتأسيساً على ذلك : فإن ماعلمناه ـ يقينا ـ أن هذا الكون كله : مادته الأصلية واحدة . . ثم تتنوع أشكاله ، وأطواره ، وأنماطه ـ حسب ما رأيناه من قبل فى قانون الخلق من كلام الدكتور « **جورج إيرل دافيز** » !! .

والأعجب من ذلك : مانراه فى الجنس الحيوانى كله . .
من اتحاد الأصل . . وهو الماء .
والتوافق فى كثير من صفات التركيب :

---

(١) سورة النحل : ٤٠ .

مثـــل :

مراحل الإخصاب والنمو .

وجوانب الإحساس والحركة .

وسمات الحاجة الغرزية فى شتى صورها ، وأنماطها

ومـع كل ذلك : فعالم الحيوان صنوف شتى . . وعوالم عجب : فى الهيئة ، والشكل والسمات ، والوظيفة . . . والمكانة . . الخ . . وسبحان الله المبدع ؛ الذى يقول :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ؟ ﴾ (١)

ثم يقول مُبيّنًا قانون التصريف فى الأصل الواحد ، ليخرج فيما بعد ـ على ضوء قانون الحكمة ـ أنماطا شتى :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ
فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ
يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ
إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢)

وإذا انـتقلنـا إلى أسمى درجـات الجنس الحيوانى : إلى النـوع الإنسانى ، فإنك تجد قانون التصريف فى مجاله عجبا :

سواء على مستوى السنن العامة .

أو على مستوى السنـن الخارقـة .

---

(١) سورة الأنبياء : ٣٠ .

(٢) سورة النور : ٤٥ .

ومن النمط الأول قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ
خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ
وَأَلْوَٰنِكُمْ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (١)

ومن النمط الثانى :

خلق آدم عليه السلام ؛ من غير أب أو أم !!

وخلق حواء من آدم : أب ، من غير أم !!

وخلق عيسى عليه السلام من مريم : أم ، ومن غير أب !!

وفى ذلك يقول جل شأنه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ
ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ
وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا
وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً . . . ﴾ (٢)

ويقول تعالى جده :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ
خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . . ﴾ (٣)

وما نجده فى علم الإنسان من إجراء قانون التصريف : نجده فى كل مجالات الأنواع ، والأجناس ، على أختلاف أنماطها وهيئاتها :

---

(١) سورة الروم : ٢٢ .

(٢) سورة النساء : ١ .

(٣) سورة آل عمران : ٥٩ .

ويشير الى ذلك ـ على سبيل المثال ـ فى عالم النبات قوله تعالى :

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ
قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ
وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ
وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ
صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ
يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ
وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١)

كما يشير إليه ـ كقانون عام ـ فى شتى الأنواع والطبائع بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا
وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ
وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ
إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا
إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (٢)

على أن قانون التصريف فى المخلوقات ليس مقصورا على عالم الأرض وما فيها من أنماط وأشكال

إذ يقرر العلم المادى أنه : كذلك فى الكون الأعلى ، وفى أدق صور الوجود المادى

---

(١) سورة الرعد : ٤ .

(٢) سورة فاطر : ٢٧ ـ ٢٨ .

ومن ذلك مثلا :

(١) ما يقول الإمام ابن تيمية .

إن طلوع الكواكب وغروبها : بالمشرق سابق عن المغرب ؛ فمتى مارؤى فى المشرق : وجب أن يرى فى المغرب . . ولاينعكس . . .

بخلاف الهلال . ! !

فإن طلوعه ، ورؤيته بالمغرب سابق . .

لأنه يطلع من المغرب . .

وليس فى السماء مايطلع من المغرب غيره . ! !) [١]

(٢) وما يقول رءوف وصفى :

« إن الشمس ، وكل كواكبها التسعة : تميل على محاورها فى أثناء دورانها ، وحول نفسها فى اتجاه واحد ـ أيضا ـ

باستثناء الكوكب : (أورانوس) الذى يبدو وكأنه يدور على جانبه بشكل غريب ، وغامض . ! ! [٢]

(٣) ويقول زهير الكرمى : فى وصف الذَّرَّة :

إن الذرة الواحدة تتكون من :

(نواة) . . بها (بروتونات ، نيوترونات) .

ويحيط بها فى مستويات : طاقة مقننة : (الكترونات) ؛ سالبة الشحنة

وأن هذه (الألكترونات) تدور حول النواة بسرعة ، وكأنها غمامة تحيط بها .

كما أن (الألكترونات) فى المستويات المختلفة : تدور متضادة مع بعضها

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جـ ٢٥ ، قضايا فقهية (للمؤلف)

(٢) الكون والثقوب السوداء ص ٤٧

فمنها : مايدور : مع عقارب الساعة
ومنها : مايدور : عكس ذلك . . . ! ! [1]

والأمثلة على هذا كثيرة . .

فهل ياترى يمكن ـ بأى مقاس عقلى ـ أن يتصور حدوث ذلك كله . . بدون مدبر ، قادر ، عالم ، حكيم ، خبير ؟ ؟

اللهم إنا لا نملك إزاء كل مانراه من صنعتك
ـ وما هو إلاشذرات يسيرة من محيطات آياتك ـ
إلا أن نقول :
﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [2]

---

(١) مقدمة : الكون والثقوب السوداء : زهير كرمى
(٢) سورة آل عمران : ١٩١ .

قانون
الخصائص المشتركة

على الـرغم من أن ثمة تَبايُناً واضحا بين أصناف الموجودات ـ على ما يبدو لنا من تباين الأشكال ، والسمات ، والوظائف ، والأطوار ـ .

بل وعلى مايبدو ـ حتى فى النوع الواحد ـ من اختلاف ، أو تباين ، كالإنسان مثلا :

فى الثقافات ، والأفكار
وفى الأشكال والألوان
وفى اللغات واللهجات
وفى الأعمار والأطوار

إلا أنه مع ذلك ـ كله ـ نجد سمات مشتركة :
نجـدهـــا :
فى الطفل ، الذى لم ير الحياة التى نعيشها إلا منذ لحظات
وفى الشيخ الفانى ؛ الذى لايحجزه عن القبر إلا خطوات !!
فى الإنسان البدائى ، الذى يعيش حياة الغابة
كما هى فى الإنسان الحضارى ؛ على قمة الفكر والمعرفة !!

وهى فى كل ذلك وغيره : تمثل إطاراً واحداً ، مشتركا بينها جميعا
كالحياة ، والموت .
والنوم ، واليقظة .
والضحك ، والبكاء
والسرور ، والحزن .

فإن كلَّ هذه الأمور : نراها ، وندركها ، ونحس بها ، ونلمس آثارها . . .

ولكن كيف هى ؟

لانعرف . !!

يضحك الطفل فى المهد . . والشيخ الفانى وهو فى أرذل العمر !!
كما يبكى الطفل ساعة المولد . . والشيخ وهو يدنو من اللحد !!
وكل ينام !! وكل يصحو !!

لافرق بين سيد وعبد ، ولابين ملك وسوقه .

يستوى فى ذلك أول الناس ، وآخرهم ، مع اختلاف البيئات والمواضع والأحوال . !!

ومن هنا . جاءت الإشارة إلى قدرة الخالق فى خلقه ، وتصرفه فى عباده ؛ حيث يقول جل شأنه :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا
وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا
فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ
وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١)

وحيث يقول :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (٢)

---

(١) سورة الزمر : ٤٢ .
(٢) سورة الملك : ١ .

وفى قولـه جل وعلا فى سورة النجم ـ إشارة إلى الأصول الأساسية العامة ، فى الخصائص المشتركة ، فى المجال المادى والمعنوى على السواء : ـ

فأما فى المجال المعنوى فبقوله :

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ
أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ
وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ
وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ
ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ (١)

وأما فى المجال الحسى المادى فبقوله :ـ

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ
وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ
وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا
وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ
وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ
وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ
وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾ (٢)

ومن هنا كانت خاتمة الآيات ـ فى هذه السورة التى أشارت إلى هذه الخصائص وغيرها . . قوله تعالى :

﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ (٣)

هذا لأنـه : لايمكن ان يصـدر ذلـك كله إلا منـه ، وبـالتـالى :

---

(١) سورة النجم ٣٦ إلى ٤١
(٢) سورة النجم ٤٢ ، ٤٩
(٣) سورة النجم ٦٢

فلا يستحق تمام الخضوع لمجده وعظمته بالسجود ، ولايستحق الإقرار والإذعان لجلاله بالعبادة : إلاهو . .

فاللهم : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

قانون
النماء والتكاثر

النماء . مستمر .. رغم عوامل الفناء الذاتية :

أولا : قانون النماء فى النوع الإنسانى :

لو كانت الحياة ، والكـون على أساس وجود تلقائى ـ رغم استحالة ذلك : فطرة ، وعقلا ، وتجربة ، وعلما ـ :

لكانت ثابتة الكيان
لازمة الصورة ،

نمطية المنهج
ثابتة الحجم . .

لكن الأمر ليس كذلك .
إذ أن كل مافى هذا الوجود ، سواء
أكان ذا عقل وإدراك .
أو كان ذا حياة حساسة بغير فكر مدرك ،
أو كان ذا نماء بغير إحساس . . أو غيره . . . وغيره .

كل هؤلاء جميعاً ـ يقوم وجودهم على قانون النماء والتكاثر .
فمثـلا : الجنس الإنسانى ـ وهو أرقى الموجودات الأرضية ـ إنما قام قانونه الطبيعى ، والواقعى على التكاثر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ (١)

وإذا كان هذا : مثال النمو والتكاثر فى النوع الإنسانى بصفه عامة ـ

---

(١) أول سورة النساء

رغم مايصاحبه من قانون آخر يناقضه ـ فى الظاهر ـ تماماً وهو قانون الإنتقاص بالموت . . .

ومع كثرة من نودعهم بالموت ـ راحلين إلى الأخرة :
فإن الجنس البشرى ينمو ، . . بما يتجاوز كل تقديرات الحاسبين . .

ولئن كان ذلك : هو قانون النماء فى الجنس البشرى ـ بصفة عامة ـ فإنه هو نفس القانون فى الفرد البشرى ـ **أيضا** ـ

فنحن نجد حياة الفرد منا تقوم على قانون النماء ـ أيضاً بتتابع المراحل ، والتى تمثل كل مرحلة منها أطواراً ، ومراحل شتى ؛ تحمل فى خصائصها : النماء والفناء ـ معاً ـ وهى :

مرحلة : الرحم
ومرحلة : المهد
ومرحلة : الطفولة ، فالاستواء والاكتمال . . فبداية التناقص .
فمرحلة : الشيخوخة ، وأرزل العمر . . .
فمرحلة : الموت ،
فمرحلة : البعث فى الحياة الأبدية الأخرى . ! !

يقول الله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ
فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن
مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ
وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ

وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ
وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ
لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ (١)

ثانيا : قانون النماء فى الأرزاق :

تأتى عقب ذلك مباشرة صورة أخرى ـ مقارنة للنماء فى الأنسان ـ هى صورة النماء فى الأرزاق التى لابد منها لتغطية حاجه هذا النماء يقول الله تعالى :

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً
فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ
زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (٢)

ثم يكون ذلك الختام : الرائع ، المؤثر ، الملفت للنظر ؛ نحو صانع القانون :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ
وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا
وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ (٣)

ثالثا : قانون النماء .. فى مجالى : الحس والعقل

والآيات البينات كثيرة فى شرح أطوار هذه المراحل ؛ سواء أكان ذلك فى المجال الحسى ، أو فى المجال العقلى :

---

(١) سورة الحج : ٥ .
(٢) سورة الحج : ٥ .
(٣) سورة الحج : ٦ ـ ٧ .

فمنها فى المجال الحسى ـ بالإضافة إلى ماسبق ـ قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ
ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ
ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً
فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً
فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا
فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا
ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ
فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١)

ومنها فى المجال العقلى قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا
وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢)

رابعا : ومع الفناء الرهيب، أيضا ـ يكون النماء

عجيب : أن (الحياة بمختلف صورها : تتكون من خلية واحدة ـ أو من مضاعفات هذه الخلية ـ والخلية الحية فى بنائها : تشبه الذرة التى تكونت منها . . .

وتنتظم الخلايا فى جسم الكائنات الحية : أنسجة متعددة ، وتنتظم الأنسجة : أجهزة متباينة ، وأعضاء مختلفة ؛ يقوم كل منها بخدمة الجسد ـ كله ـ فى توافق ، وتكامل ، ودقة ، وإعجاز .

---

(١) سورة المؤمنون : ١٢ ـ ١٤ وانظر ارتباط الآيات بما بعدها !!
(٢) سورة النحل : ٧٨ .

وصور الحياة : ـ كلها ـ مبنية على هذه الوتيرة ، وعلى نفس النظام ، وإن تباينت : بساطة ، وتعقيداً .

ويكفى أن نذكر : أن بجسم الإنسان ـ وهو أرقى المخلوقات ـ أكثر من ألف مليون خلية . . تتجدد منها فى كل ثانية (١٢٥) مليون خلية فى المتوسط

وسبحان الله القائل : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون . ؟ ﴾ [١]

فالإنسان : كيان حى ؛ خاضع لقوانين الحياة : من ميلاد ، ونمو ، وتكاثر ، وازدهار ، وشيخوخة ، وموت

وهذا الكيان الحى : ـ كذلك ـ بالغ التعقيد ، دائم التحول) [٢]

خامسا : والنماء والامتداد : قانون الكون الأعلى

ولئن كان التكاثر ، والنمو ، والامتداد : هو قانون الحياة الذى نشهده على مسرح الحياة فى أنفسنا وما حولنا : فإنه كذلك هو قانون الكون كله .

يقول العلم :

والكون . . يتسع باستمرار ،

والمجرات . . . فيه تتباعد ـ بعضها عن بعض ـ بسرعة مذهلة ،

وهى كلما بعدت : تتزايد سرعاتها ، لتظل محتفظة بتوازنها :

والكون فى تمدده : يزداد الفضاء بين مجراته ، بحيث يبقى حجم المجرات ثابتا .

وعلى ذلك : فإن مكاننا المنعزل فى هذا الركن من الفضاء : يزداد عزلة ؛ كلما ابتعد جيراننا عنا

---

(١) كتاب تفسير الآيات الكونية : د /عبد الله شحاته والآية : ٢١ الذاريات

(٢) المصدر السابق

﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ . . »[1]

سادسا : والنماء والفناء فى الكون الأعلى ـ أيضا ـ

والأعجب من ذلك : أن هذا العالم العلوى ؛ إلى جانب مافيه من انطباق قانون النمو والاتساع : فإنه يحمل فى ذاته عامل النقص ـ أيضا ـ كالقانون السارى فى حياة الإنسان .

يقول : زهير الكرمى :

. . . إن الكون متجدد : تموت فيه نجوم ، وتولد نجوم باستمرار
وأن هذه العملية : يرافقها مخاض عنيف أحيانا ، ومخيف : أحياناً أخرى . .

والسؤال الهام : من أين تأتى مادة النجوم الجديدة ؟؟ [2]

وإذا كان العلماء الماديون : يحارون فى الإجابة على السؤال : فإننا لنجد تمام الطمأنينة ـ لدينا ـ بالرجوع إلى قانون الفطرة :
إذ يقول الله تعالى فى تصويره لنا :

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ
بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ . . .
إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [3]

---

(١) تفسير الآيات الكونية : د / عبد الله شحاته ص ٢٨٠ ، الكون والثقوب السوداء ص ٤٥ / رءوف وصفى
(٢) مقدمة الكون والثقوب السوداء زهير كرمى
(٣) سورة يس : ٨١ ـ ٨٢ .

فى النهاية
لابديل عن الإيمان

خاتمة المطاف ...

بعد هذه الجولة الشيقة فى دلالات القرآن ، وسنن الأكوان ، وعالم الحياة والإنسان .

وهى واسعة ؛ سعة : لا نعلم من دلالاتها ، ووجودها إلايسيراً

إذ يقول الله تعالى : ـ مشيراً إلى ذلك ـ

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ (١)

وإذ يقول جل شأنه :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢)

نقول : إنه بعد هذه الجولة الموجزة المقتضبة : لا نجد بُداً من الإذعان بأن الكون ملك لصاحبه :

صنعه بقدرته ، وأجراه بحكمته ، وأبقاه بإرادته . . . وهو ـ سبحانه ـ . . . الحكيم الخبير . .

كما أن نداء الفطرة بالإيمان : صوت تتجاوب أصداؤه فى كل واد . . وحين . . حتى مع اختلاف الاتجاهات والمقاصد ، وتباين الأفكار والعقائد :

يقول البرت اينشتين (صاحب نظرية النسبيه) :

إن أعظم خاطرة يمكن أن تجيش بها النفس البشرية . وأجملها : ـ

---

(١) سورة الكهف : ١٠٩

(٢) سورة لقمان : ٢٧

لهى تلك التى يستشعرها الإنسان عند الوقوف فى روعة أمام هذا الخفاء الكونى . . والإظلام . ! !

إن الذى لاتجيش نفسه لهذا ، ولاتتحرك عاطفته : حى ؛ ميت ؟!

إنه خفاء : لانستطيع أن نشق حجبه . . . وإظلام : لانستطيع أن نطلع فجره . . ومع ذلك :

فنحن ندرك : أن وراءه الحكمة : أحكم ماتكون . . ! !

ونحس : أن وراءه الجمال ؛ أجمل مايكون ! !

وهى حكمة ؛

وهو جمال ؛

لاتستطيع عقولنا القاصرة أن تدركهما إلا فى صور لهما ، بدائية أولية . .

ولكن هذا الإدراك : ـ لهذه الحكمة . وهذا الإحساس ـ بمثل هذا الجمال : فى أروع مايكون الجمال ، هو عندى جوهر التعبد عند الخلائق ! !

ـ إلى أن يقول : ـ

إن دينى : هو إعجابى ـ فى تواضع ـ بتلك الروح السامية التى لاحد لها . .

تلك : التى تتراءى فى التفاصيل الصغيرة ، القليلة ، التى تستطيع عقولنا الضعيفة العاجزة ـ إدراكها : ! !

وهو إيمانى العاطفى العميق : بوجود قدرة مهيمنة ؛ تتراءى حيثما نظرنا فى هذا الكون المعجز للأفهام ؟ ! ! (١)

---

(١) تفسير الآيات الكونية : د . عبد الله شحاته ص ٢٦٦/٢٦٧ .

ويقول الدكتور (جون كليفلان كوثران) [1] :

قال الدكتور لورد كيلفى : ـ وهو من علماء الطبيعة البارزين ـ هذه العبارة القيمة :

« إذا فكرت تفكيرا عميقا : فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد فى وجود الله »

ولابد أن أعلن عن موافقتى ـ كل الموافقة ـ على هذه العبارات .

ثم يقول : ـ بعد ذكر العديد من الدراسات والتجارب العلمية : ـ

فإذا كان هذا العالم المادى عاجزا عن أن يخلق نفسه ، أويحدد القوانين التى يخضع لها :

فلا بد أن يكون الخلق قدتم بقدرة كائن غير مادى .

وتـدل الشـواهد جميعا : على أن هذا الخالق لابد أن يكون متصفا بالعقل والحكمة . . !!

ثم يقول :

وعـلى ذلك : فإن النتيجة المنطقية ، الحتمية ، التى يفرضها علينا العقل : ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقا فحسب . . . بل لابد أن يكون هذا الخالق :

حكيما

عليما

قادراً على كل شىء

حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون ، ويُدَبِّرَه . !!

---

(١) (جون كليفلاند كوثران) من علماء الكيمياء والرياضة ، دكتوراه من جامعة كورنل ، رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث . إخصائى فى تحضير النترازول وفى تنقية التنجستين : (الله : يتجلى فى عصرالعلـم) .

ولابد أن يكون هذا الخالق :
دائم الوجود
تتجلى آياته فى كل مكان
وعلى ذلك : فإنه لامفر من التسليم :
بوجود الله ، خالق هذا الكون . . . وموجهه [1]
ويقول : رءوف وصفى ـ تحت عنوان : الكون المجهول ـ .

(. . . . . **فإذا سمحنا لعقولنا . . لخيالنا : أن ينطلق بلا حدود :** فإننا عندئذ نبدأ فى تصور لجزء من المشهد المجسم ، الرائع ، بالغ الروعة ، الذى نطلق عليه : الكون .

فمهما ترنمنا : بكلمات تعزف على قيثارة الغموض
ومهما دخلنا فى تفسيرات للمجهول : تتعالى هائمة بين النجوم والمجرات

كل هذا يتبدد تحت ضوء الإيمان المنبثق . . من عظمة الكون . . وروعته . .

ويخضع العقل الإنسانى : للقدرة الإلهية . . كلما تطلع إلى السماء . . !! ويستسلم تماماً فى خشوع ، . . وإيمان . . بذلك النظام والتنسيق الكامل . . وللأسرار التى تهبط إلينا فى تؤدة . . وحكمة خالدة . . .) [2]

وإذا كنا قد أوردنا (بعض) مانقل عن (بعض) من احترموا عقولهم ، وبهرهم نور الحق من (بعض) ملامح العظمة فى الكون .

---

(١) (الله) : يتجلى فى عصر العلم : نخبة من العلماء الأمريكيين إشراف جون كلوفر مونسما . . ص٢١ إلى ٢٥ .
(٢) الكون والثقوب السوداء : رءوف وصفى .

فما ذلك إلا لكى نذكر أولئك الذين أصموا آذانهم ، واغمضوا أعينهم ، عن كل نداء للحق . . استجابة لنداء الإلحاد ، وأغفلوا فى أنفسهم نداء الفطرة : مجاراة لدواعى المادية ، العمياء . . . والتى لم تدرك المادة فى حقيقتها ، ولا فى حقيقة السنن التى قامت عليها .

واستخفوا بعد ذلك كله بكل مقومات الإنسان وخصائصه . . ولئن كان أولئك العلماء ـ المنصفون ـ قد أعلنوا من خلال الدراسة ، والتجربة ما انتهوا إليه .

فما ذلك إلا بعض ما يؤمن به المسلم . . إذ يقرأ فى كتاب ربه جل وعلا :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا
مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ
فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ
هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ
ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ
يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ . (١)

كما يعلم سلفا من كتابه تعالى إليهم : أن هذه الشذرات من صوت الحق الصادع ببعض دلائل الإيمان :

لابد من أن تصل يوماً إلى البهر القاهر الذى لا يبقى معه شىء غير الإيمان الصراح البين المشرق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ
وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ
حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ . (٢)

---

(١) سورة الملك : ٣ ـ ٤ .
(٢) سورة فصلت : ٥٣ .

أفق الشريعة

التي تواكب الفطرة وتحقق السعادة .. الأبدية ..

شريعة الفطرة :

إذا كانت العوالم الكونية محكومة بقوانين الفطرة ـ فى عالمها الفسيح بما يحقق بين كل أجزائها الاتساق والتكامل والنظام ـ

فإن عالم الإنسان : ـ الذى اختص بالخلافة فى الأرض ، ونال منزلة التكريم العظمى ؛ على بقية الموجودات ـ فى حاجة ملحة إلى مثل تلك القوانين ؛ التى تحقق بين جميع أفراده التوافق والانسجام ، والتى تحقق له حاجاته بالتعاون مع ما حوله من بقية العوالم ؛ دون تناقض أو انفصام : وشاء الله تعالى أن يمن على الإنسان بشريعة عامة ، كاملة توافق فطرته ، وتحقق له حاجاته .

فشريعة الإسلام : آية من آيات الله تعالى ، محققة لأسمى حاجات الفطرة المتميزة لدى الإنسان ، دون تناقض أو أصطدام ببقية قوانين الفطرة العامة فى الكون والحياة

ونستطيع أن نتبين ذلك بوضوح من المبادئ الأساسية ، والقواعد العامة التى قامت عليها هذه الشريعة

أو التى قامت على حراستها ورعايتها فى عالم الإنسان . . .

قواعد الشريعة ومبادئها الأساسية :

المبادئ الأساسية ، والقواعد العامة لشريعة الإسلام التى تميزها عما عداها : كثيرة ، ولكن يمكن إجمال أهمها فيما يلى :

---

(١) يراجع فى موضوع أفق الشريعة ـ بالتفصيل ـ فى كتابنا : هذا القرآن . . . فأين منه المسلمون؟ ! جـ ٢ (الهداية فى القرآن الكريم) .

أولا : العموم والشمول :

ومرجع ذلك : أن الفطرة التى فطر الناس عليها ـ فى حقيقتها ـ :

عامـة : فلا تقتصر على جيل دون جيل ، ولا موطن دون موطن

شاملة : فلا تقف قوانينها وضوابطها : على حالة بعينها ، أو تجمد قضاياها على موقف دون سواه

ومتكـاملة : فلا يحدث بين جوانبهـا التنـاقض ، ولا بـين مسالكها الاضطراب والخلل .

وكذلك شريعة الإسلام . . .

فهى شريعة : عامة ، شاملة ؛ صالحة ـ فى كل أحكامها ، وقضاياها الأسـاسية ـ لجميع أطـوار الزمن ، وكل أصناف البشر ، وشتى أحـوال العلاقات ؛ التى تشبع لدى الإنسان حاجته الذاتية ، وتربط بينه وبين بقية بنى الإنسان من حوله بروابط الأخوة ، والرحمة ، والتعاون .

كما تربط بينه وبين بقية العوالم التى تحيط به ـ أو يعيش بجوارها أو يتعامل معها ـ برباط الألفة والمصالحة .

ومن هنا : كان التعبير عن هذه الشريعة بأنها : صالحة لكل زمان ومكان . .

ولعله من أبرز دعائم عمومها وشمولها : أنها تميزت عن كل ما عداها بسمات بارزة مـن أهمهـا :

العدالة المطلقة . . .

المساواة التامة . . .

والمرونة فى الأحكام . . .

ولزوم الاجتهاد . . .

وحرية الرأى . . ونحوها .

ولئن كانت تلك السمات لابد منها فى أى نظام صالح ، كما أنه لابد منها لبقاء أى مجتمع سَوِىّ .

إلا أنها على مستوى التشريع ، والتطبيق المثالى : لم تتحقق هذه القواعد والأسس المثالية : كما تحققت ـ بأجمل صورة واكملها فى الإسلام .

ذلك : أن حلول مشاكل الحياة ، والاجتماع ، والسلوك ؛ فى الإسلام : دين . . لاينفصل بعضها عن بعض ، ولايقوم الدين بتمامه وكماله إلا بقيام كل أجزائه وجوانبه ولذلك المنهج سمات عديدة . . من أهمها :

السمة الأولى : العدالة المطلقة

عندما نتأمل المسألة نرى : أن الإسلام يقرر مبدأ العدالة المطلقة ، تلك العدالة التى لاتفرق فى قوانينها بين سيد ومسود ، ولابين حر وعبد ، ولابين عدو وصديق ، ولابين رجل وامرأة فى الحقوق والواجبات العامة ؛ فهم جميعاً أمام عدالته سواء .

وفى ذلك يقول دستوره الحكيم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ
أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا
وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ (١)

ويقـــول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ
شُهَدَآءَ لِلَّهِ
وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ

(١) سورة النساء : ٥٨ .

إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا
فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا
وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١)

على هذه القواعد الواضحة : ـ وأمثالها فى القرآن وتطبيقاته : كثيرة ـ قامت موازين الحقوق والواجبات فى شريعة الإسلام ؛ القائمة على هدى كتابه المعصوم

ولذلك فإنه : لم يعرف فى عهود الإسلام الزاهرة حيف ، على ضعيف لضعفه ، ولا مجاملة لعظيم من أجل حسبه ، أو نسبه ، أو جاهه ومكانته .

ولكى تبقى هذه المبادىء مشرقة عاملة : فقد ركز القرآن ـ تركيزا خاصا ـ على الدعوة إلى نبذ كل عوامل الميل مع الهوى ، أو الاستماع إلى همس المثبطين ، أو مؤثرات الانحياز لرغبة أو عاطفة ؛ على حساب الحق ، والعدل .

كما فى قوله جل شأنه :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ
وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا
وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا
وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (٢) **الآيات**

وكقوله جل شأنه :

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ

---

(١) سورة النساء : ١٣٥ .
(٢) سورة النساء : ١٠٥ ـ ١٠٧ .

وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ
فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ (١)

ولذلك : كانت تلك الصلابة فى الحق ، والدقة فى تحرّيه ، والحرص على العدل ، والإصرار على القيام به : من أهم ملامح التشريع والقضاء فى الإسلام .

ولعله من أبرز الشواهد على ذلك : قضية : فاطمة المخزومية عندما ثبتت عليها السرقة

وهى قضية شغلت الرأى العام لعدة أسباب ؛ من أهمها :

أنها قضية سرقة . !
وان السارق امرأة . !
وهى من بنى مخزوم . !! من قريش !!
والحد قطع اليد . . ؟ !!

الأمر الذى شغل الناس جميعاً ، **وحملهم** على محاولة استمالة النبى ﷺ وسلم بشفاعة حِبِّه ، ابن حبه : أسامة بن زيد - رضى الله عنهما -

الذى ما أن بدأ فى عرض وساطته : حتى واجهه النبى ﷺ بغضبه ، وباللوم العنيف ، والتثريب الزاجر إذ قال له :

« أتشفع فى حَدٍّ من حدود الله ياأسامة . ؟ ! »
ثم نقل الموقف من التثريب واللوم إلى الإنكار العلنى
ليقطع السبيل على مثل هذه الظاهرة ؛ ظاهرة الوساطة والمحسوبية والتى ما تغلغلت فى مجتمع إلا أفسدته .

---

(١) سورة المائدة : ٤٩ .

ولتقوم على ضوء هذا المثال : قاعدة العدالة المطلقة فى أبهى صورها ، وأجلى معانيها ، إذ أنه ﷺ : **قام فاختطب ثم قال :**

« إنما أهلك الذين قبلكم : أنهم كانوا : إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . .
وآيم الله ! ! لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . ! ! » [1]

والأمثلة على نحو هذا أكثر من أن نلِمّ بها فى هذه الرسالة الوجيزة . . والإشارة إلى بعضها كاف فى الدلالة والبيان

السمة الثانية : المساواة الكاملة

والمقصود هنا هو المساواة التامة بين الناس ـ جميعاً ـ فى الحقوق والواجبات العامة .

فلا تمايز لأحد على أحد بسبب : لون ، أو لغة ،

ولاتفاضل من أجل : حسب ، أو نسب .

ولاسبق بسبب : منصب ، أو مال ، أوقبيل . .

إذ كل ذلك ـ فى مفهوم الإسلام ـ قشور وظواهر ، وأعراض ؛ لاترقى إلى لُبِّ الحقيقة أو جوهر الأمر .

كما أنه لا ميزة لشىء من السِّمات التى يتصف بها الناس : **سوى التقوى .**

وحتى هى : أمر يكون الجزاء عليه فى يوم القيامة ؛ دار الجزاء .

---

(١) أخرجه الخمسة : عن عائشة رضى الله عنها .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١)

ولعلنا لانحتاج إلى ضرب الكثير من الأمثلة على هذه المساواة المثالية فى المجتمع الإسلامى الحق . . الذى سادت فيه تلك المثل الرفيعة : منهجا ، وقانونا ، وخلقا ، وسلوكا .

إذ هى من الشهرة والذكر بما لايحتاج ، منا إلى شاهد أو بيان . ! !

السمة الثالثة : أنها شريعة مرنة

وترجع مرونتها إلى أنها مضبوطة ـ من حيث الأصل ـ بصورة لاتقبل العبث أو الاحتيال .

وهى ـ فى نفس الوقت ـ قابلة لاستيعاب كل آفاق التقدم الحضارى ، والعلمى السليم . .

ذلك : لأن القرآن الكريم نزل متضمنا لكل القضايا العامة ، والمبادىء الأساسية . التى لاتجوز مخالفتها ، ولايقبل التفريط فيها ؛ **وتركت آياته فرعيات المسائل** ، وجزئيات الأمور : للتطبيق المناسب لحالة العصر ، وأسلوب المجتمع ، ومنطق التطور .

فمثلا :

أوجب الإسلام الوسطية فى كل شىء . . ومن ذلك : الطعام والشرب ودعا إلى الأخذ من الطيبات فى حدود الاعتدال : لا إسراف ولاتقتير

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

وفى هذه الحـــدود: لا بأس أن نجـارى العصر وثقـافتـه ، والبيئـة وتقاليدها ، والحضارة ومتغيراتها . . كيفما يكون الأسلوب والطريقة :

بمعنـى :

كُلْ كيف شئت ! وبأى صورة أحببت :

كُلهْ : نضيجاً . . أو قديداً ! !

كله : على خوان . . أو مائدة ! !

كله بالأصابع . . أو بآلة ! !

كله : صرفا . . أو ممزوجاً بحلال آخر ! !

فتلك ـ كلها ـ أمور هى لوازم بيئة ، وطريقة عصر ، ولاحرج فى شىء منها مالم يكن : سرف أو مخيلة :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ
وَٱلْإِثْمَ
وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ
وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا
وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

السمة الرابعة : أن الاجتهاد فى شريعة الإسلام : فريضة

ذلك أن المسائل التشريعية ـ فى فروع المسائل التى لانص فيها ـ إنما تحكمها القواعد العامة ؛ بما حواه القرآن الكريم من المنهج الكلى ، الذى استوعب كل القواعد والأصول ، ومابينته ـ كذلك ـ السنن الصحاح .

---

(١) سورة الأعراف : ٣٢ ـ ٣٣ .

وقياس المسائل ، واستنباط الأحكام :ليس من علم العامة ، وإنما هو علم الخاصة .

كما يفصله الإمام الشافعى رضى الله عنه بقوله :

ينقسم علم الشريعة إلى قسمين :

قسم للعامة :

وهو مالا يسع مسلما جهله ، بل تجب عليه معرفته

وقسم هو علم الخاصة وهو : ماليس فيه نص من كتاب ولا سنة ـ أوفيه سنة غير متواترة .

وهو العلم : الذى يعمل فيه أهل الاجتهاد ، وأنه فرض كفاية على المسلمين . . لكنه يصبح فرض عين على من تعين عليهم . عملا بقوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً
فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ
لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ .
وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١)

وبالتالى : كان الاجتهاد : أصلاً من أصول الدين ، وفريضة من فرائضه .

وحرية الرأى : إحدى دعائمه التى لا يقوم إلا بها ، ولا يعتمد إلا عليها ـ مادام ذلك فى حدود الضوابط العامة . ولايناقض أصلا من أصولها ـ .

---

(١) سورة التوبة : ١٢٢ .

ومن أدلة التأكيد على هذا المبدأ

أن رسول الله ﷺ عندما بعث معاذا ـ رضى الله عنه ـ إلى اليمن : أجرى له اختباراً شخصياً : للتعرف على مقدار قدرته على الاستنباط ، وإمكاناته فى التصرف عند عروض ما ليس له نص عنده من القضايا والمسائل .

فقال له : « كيف تقضى : إذا عرض لك قضاء ؟ »

قال : أقضى بكتاب الله .

قال : «فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ »

قال : أقضى بسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قال : «فإن لم تجد فى سنة رسول الله ﷺ »

قال : أجتهد رأى ولا آلو . .

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال :

« الحمد لله الذى وفّق رسولَ رسولِ الله ﷺ : لما يرضى رسولَ الله » (١)

الدعامة الثانية : واقعية التشريع :

والذى نعنيه بهذه الواقعية : أن هذه الشريعة إنما جاءت لتتعامل مع هذا المجتمع الإنسانى بكل ما فيه ، من عوامل التركيب البشرى ، وبكل مايصطرع فى داخله من عناصر التكوين الإنسانى المتعددة : الروح ، والجسد ، بكل أشواقهما وحاجاتهما .

---

(١) أخرجه أبو داود ـ واللفظ له ـ والترمذى ، وقال : هذا حديث حسن لانعرفه إلا من هذا الوجه . . وقد تكلم العلماء فى إسناده ، والوجه فيه : ماقاله ابن الجوزى : لايصح . . وإن كان الفقهاء يذكرونه فى كتبهم ويعتمدون عليه ـ وإن كان معناه صحيحا .

أقول : وقد ـ تلقاه العلماء بالقبول ـ ونقل عن ابن العربى ذكر الخلاف فيه ثم قال : والذين القول بصحته إلخ (راجعه مستوفى فى حاشية جامع الأصول ـ للأرناءوطى) جـ١٠ ح ١٧٣

ومن هنا : جاءت هذه الشريعة متخاطبة مع واقع الإنسان ـ وتكوينه الفطرى . . . إنها تتجاوب معه ، بل وترقى به فى حدود هذه الفطرة ، وبمقتضى تلك الواقعية .

ولذلك : فقد كانت نظرتها إلى الإنسان نظرة شمولية ، واقعية ، دائما . . لم تخاطبه على أنه مَلَك ؛ خال من الخطيئة ، مجرد من الإثم . ولم تعامله على أنه شيطان ، متمرد على الحق ، مسئول عن جُرْم الخطيئة الأولى .

وإنما تخاطبه على أنه وحدة مستقله ، فى إطار التكوين العام ، الذى قد يتأثر به ، ويؤثر فيه وهو باعتباره وحدة مستقلة تجعل له قانونه الجزائى الخاص :

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ (١)

وهو . باعتباره جزء من الكيان العام : تضع له قانونه المناسب لذلك فى مثل قوله تعالى :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢)

ومن حيث الخطيئة ـ أيضا ـ :

ترى شريعة الإسلام تسلك مع الإنسان مسلك الفطرة فيه : وتخاطبه

---

(١) سورة النجم : ٣٨ ـ ٤١ .
(٢) سورة آل عمران : ١٠٤ ـ ١٠٥ .

بمقتضى البواعث التى تتفاعل فى ذاته ، وتعرفه بحقيقة تكوينه ، ثم تدعوه إلى الاستعلاء بنفسه ، وأن يكون سيد ذاته وموجِّه غرائزه :

وذلك كما فى قوله تعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (١)

تحذره من مغبة الوقوع فى المعصية وتبين له أنها مهلكة له ، مضيعة لكل بواعث الخير فيه وكل حصيلة البر عنده :

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ (٢)

ولكن :ـ ماذا لو حدث ووقعت المعصية . ؟؟

الجواب : إنها الاستجابة التلقائية الخاضعة لما هو مختزن فيه من وقود التكوين ؛ إذا لم يتم صقله ببواعث الإيمان ، ولم يمتحن بحرارة اليقين .

فلتكن له فرصة المتاب : متاحه ؛ وحافز الإنابة : موفوراً . !!

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الشمس : ٧ ـ ١٠ .

(٢) سورة طه : ١١١ .

(٣) سورة الزمر : ٥٣ ـ ٥٥ .

ومن حيث مطالب الحياة . .

ترعى شريعة الإسلام هذا الجانب فى الإنسان فلا تحظر عليه شيئاً هو فى مصلحته ، ولا تبيح إلا ما فيه مصلحته ـ أيضا ـ ومن هنا : كانت له ملامح هذه الشريعة : واضحة المعالم . . بينة المحجة ، فلا غموض فيها ، ولاخفاء فى أحكامها ، ولا تعقيد فى فهم الحكمة منها :

كما فى قوله تعالى :

﴿ . . . يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ
وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ
وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١)

بل : إنه ليحجز هذه الفطرة أن توغل فى المسائل حتى لاتتعرض للحرج : كما فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ
وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ
عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ
قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ (٢)

كما يمنعها عن التشدد فى العبادات ، حتى لاتصل إلى الملل ، أو تقع فى المشقة ، ومن ذلك نهيه ﷺ عن : صوم الدهر ، وعن الوصال فى الصوم ، والانقطاع إلى العبادة والتبتل ، وترك متاع الدنيا ونحوه . كما فى قوله ﷺ :

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٧ .
(٢) سورة المائدة : ١٠١ ـ ١٠٢ .

« أما والله . . إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له . .
ولكنى أصوم ، وأفطر
وأقوم ، وأرقد
وأتزوج النساء . .
فمن رغب عن سنتى فليس منى » [1]
وكقـولـه صلى الله عليه وسلم :
«لا صام من صام الدهر » [2]
وهكـــــذا . . .

الدعامة الثالثة : اليسر ودفع الحرج :

هذه الـدعـامة التى تمثل واحدة من أبرز قواعد التشريع فى شريعة الإسلام التى تقوم عليها أحكامها ، وتنبنى عليها قواعدها .

وهى ليست من القـواعد التى أستنبطها الفقهاء استنباطا ؛ ولكنها النص الصريح :

إذ يقول الله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [3]

ويقـول : ﴿ . . وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ . . ﴾ [4]

ويقول : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ [5]

ثم جاءت ـ بعد ذلك ـ كل التكاليف ، وجميع التطبيقات النبوية :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والشيخان ، والدارمى . .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده فى مواضع منه
(٣) سورة البقرة : ١٨٥ .
(٤) سورة الحج : ٧٨ .
(٥) سورة البقرة من الآية الخاتمة .

To: www.al-mostafa.com

مُنْبَنِيَةً على هذه القاعدة ، فى كل مجالات العمل التعبدى ، والتعاملى ، والسلوكى . . . وفى شتى أنماط الحياة وظروفها . .

بل لقد كان النهى عن المبالغة والتشدد : هو السمة المكملة ، للقاعدة ، والمفسرة لأبعادها :

عن جابر رضى الله عنه قال :
خرجنا فى سفر ، فأصاب رجلاً منا حجر فشجه فى رأسه .
ثم أحتلم ، فسأل أصحابه : هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟
فقالوا : ما نجد لك رخصة ، وأنت تقدر على الماء . .
فأغتسل ، فمات .

فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبر بذلك . . فقال :
« قتلوه . . قتلهم الله ! !
ألا سألوا ؛ إذ لم يعلموا . . ؟ فإنما شفاء العىّ السؤال . . .
إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر ـ أو يعصب ـ على جرحه خرقة ثم يمسح عليه ، ويغسل سائر جسده) [1]

ومن ذلك قوله ﷺ :
« ألا هلك المتنطعون » [2]

وقوله :
« إن هذا الدين متين . . فأوغل فيه : برفق . . .
إن المُنْبَتَّ : لأظهراً أبقى ! ! ، ولا أرضا قطع ! ! » [3]

---

(١) أخرجه أبو داود ، وابن ماجة ، والدار قطنى ، وصححه الإمام ابن كثير
(٢) أخرجه أبو داود
(٣) أخرجه البزار بلفظه عن جابر ، وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن أنس بلفظ : إن هذا الدين متين ، فأوغلوا فيه برفق ـ دون بقية الحديث . (بسند حسن)

الدعامة الرابعة : وسطية الشريعة

ومنطق الفطرة فى سَنِّ أحكام هذه الشريعة : يبدو بارزاً فى أنها تسلك منهج **الوسطية** : إذ تأخذ ـ من حيث عموم الحكم ـ مستوى أوساط الناس ، ومقدار الأستطاعة لعامتهم .

بمعنى أنه : لم تشرع أحكامها على أساس ما يستطيعه أصحاب العزائم القوية ، والهمم العالية : الذين يستطيعون تحمل ما هو فوق المعتاد لعامة الخلق . . .

كما أنها لم تشرع بمستوى أصحاب الهمم الهابطة والعزائم الخائرة : الذين أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءكم !!!

ومن هنا : كان تقدير الشريعة لأعذار أصحاب الأعذار ، ومعالجة كل حالة بما يناسبها ؛ ميزة لم يسبقها فيها ، ولم يلحقها إليها تشريع آخر .

حتى فيما يتعلق بالعقوبات على الجرائم العظام التى شرعت لها أحكام الحدود والتعزير ، والقصاص ، والديات ونحوها . .

إذ كلها ـ فى حقيقتها ، ومدلولها ـ قائمة على أساس قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٢) .

من ذلك . . وغيره : مما لا يستطاع استيفاء شواهده ، لما فيه من خروج عن منهج الاختصار المستهدف فى هذه الرسالة الوجيزة . .

فضلا عما فى هذه الشريعة من سمات أخرى ـ وكلها تنتهى إلى : فطريتها ، وإعجازها ، ووفائها ، وخلودها ، وضمانها للسعادة فى الدنيا

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٦ .

(٢) سورة الحج : من الخاتمة .

والآخرة . . وقيامها فى كل ذلك : على أساس منافع العباد ومصالحهم . وإن خفيت عليهم .

وصدق الله العظيم :

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ
فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ
كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ
أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ
وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١)

---

(١) سورة المائدة : ٤٩ ـ ٥٠ .

أُفُقُ الدَّعوة

فطرية المنهج فى الدعوة

الإسلام فى دعوته : كالإسلام فى عقيدته . . . وشريعته :

منهج يخاطب الفطرة ، ويستثير كوامنها ، وينبه بواعث الخير فيها . . منهج يخاطب العقل ، والقلب ، بمنطق الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدل بالتى هى أحسن .

فليس فى منهج الإسلام إكراه على دين ، أو إلزام بعقيدة :

ذلك أن الفطرة الصحيحة : لا يمكن أن تقتنع بالإكراه ، أو أن تلزم الاعتقاد بالقوة . .

إن القناعة ، والاعتقاد محلهما قلب المرء مهما تكن وسائل التأثير ، أو الإكراه : المادى . . أو الأدبى . .

ومهما تكن صور إظهار الموافقة ، والتلويح بالقبول :

فإنه : لا سبيل إلى شىء من ذلك ، ولا تأثير له على العقل أو الوجدان .

ومن هنا : كان ذلك المبدأ الصريح فى منهج الإسلام :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ
قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ
فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ
لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١)

وكان منهجه فى الدعوة : معتمداً على طرح الفكرة ، وشرح أبعادها ،

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

مع العمل الدائب على إيقاظ العقل من سباته ، وتخليصه من قيود التبعية والوراثة ، وإزاحة ما ران عليه من ظلمات الجهالة والتقليد .

حتى يستطيع معرفة الحق .

فإن آمن : فعن بصيرة . .

وإن نكص : فعن غير حجة ، أو معذرة . .

ولذلك : كان منهج الدعوة ـ منذ البداية ـ : قائما على عرض القرآن الكريم ؛ عرضا بسيطا ، دون تكلف أو افتعال :

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ (١)

وكما يشير إليه أيضاً قوله جل شأنه :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

بل لقد بلغ احترام الإسلام للفطرة : ـ وأنها قد تتشبث ـ عند انتكاسها ـ بعدم الإصاخة لنداء الحق ، أو يدفعها العناد : إلى مقاومة منطقه الصراح . دفاعاً عما تعتنقه من باطل ؛ لم تصل بعد إلى قناعة تحملها على التخلى عنه

---

(١) سورة النمل : ٩١ ـ ٩٢ .

(٢) سورة التوبة : ٦ .

بلغ من احترام الإسلام لهذه الفطرة ـ أن حذَّر المسلمين من أن يسبوا آلهة الضلال ، وطواغيت الكفر ، ورءوس الفتنة : حتى لا يندفع أصحابها ـ بعامل الانتقام من السابِّ ـ إلى توجيه السبِّ إلى الله ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

وفى ذلك يقول جل شأنه :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ
كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ
ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١)

منهج التعامل مع غير المسلمين

وفى سبيل تدعيم هذا المنهج : جعل الله تعالى التعامل مع غير المسلمين قائما على أسس ثابتة ، منطقية ، عادلة .

وخص أهل الكتاب منهم بالرعاية ، والتمييز فى المعاملة ؛ لما هم عليه من شبهة الانتساب إلى كتاب ـ وإن كانوا فى حقيقة أمرهم ، وواقعهم ، على غير المنهج الحق ـ لعدم : الالتزام بمنهج الدين والإقرار بشريعة الإسلام ، والتصديق برسالة خاتم المرسلين ﷺ التى جاء بيانها فى كتبهم وأخذ عليهم به العهد أنبياؤهم إذ يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا
مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ
قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي
قَالُوا أَقْرَرْنَا
قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ

(١) سورة الأنعام: ١٠٨ .

فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ
أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ
وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (١)

وقد قال ﷺ : « والذى نفسى بيده :

لـو أصبح فيكم موسى ـ عليه السلام ـ ثـم اتبعتموه، وتركتمونى : لضللتـم .

إنكم حظى من الأمم . . وأنا حظكم من النبيين » (٢)

ومن ذلك نستطيع أن نَستبين ، معاملة الإسلام لغير أتباعه ـ فى إيجاز عاجل ـ من خلال المبادى التالية :

مبدأ الأعتقاد :

وهو ـ كما سبق أن المَحْنَا مبدأ يستقر فى الوجدان ، وتنطوى عليه حنايا العقل والقلب معاً ، ولهذا يقرر الإسلام فى شأنه الأسس التالية :

١ ـ حرية الاعتقاد :

كما فى قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (٣)

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤)

---

(١) سورة آل عمران : ٨١ ـ ٨٣ .

(٢) رواه الإمام أحمد (راجع فى تفسير ابن كثير وغيره معنى الآيات ، ودلالاتها ؛ والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى فى مثل هذه الرسالة المختصرة) .

(٣) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٤) سورة يونس : ٩٩ .

ب ـ حرية العبادة :

وذلك كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ
وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ
وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ
وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ
لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾

جـ ـ المواصلة والمودة :

يفرق الإسلام تفريقا بيِّناً بين معاملة المحاربين وغيرهم :

فأما المحاربون : فلهم أحكامهم ، ومعاملتهم بالأسلوب الذى يتفق ومنطق الحرب ، وما يترتب على المعاملة فى أثنائها من تبعات وعواقب . .

لكن غير المحاربين : ـ ممن يعيشون مع المسلمين ؛ تحت عقد ذمة ، أو أمان ، وحافظوا على عهود ذمتهم ، أو أمانهم ـ فإن أسلوب المعاملة معهم مختلف تماما :

إذ يقول الله عز وجل :

﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ
وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢)

---

(١) سورة الكافرون .

(٢) سورة الممتحنة : ٨ ـ ٩ .

وفى الحديث الصحيح : عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت :

قدمت أمى وهى مشركة ـ فى عهد قريش . إذ عاهدوا ـ .

فأتيت النبى ﷺ فقلت :

يا رسول الله .

إن أمى قدمت وهى راغبة . . أفأصِلُها . ؟

قال : « نعم . . صِلِي أمَّك » (١)

هذا . . . ولعقود الذمة والأمان أحكام وتفصيلات شتى ؛ تولت بيانها كتب أصول الفقه وفروعه مما ليس هنا مكان دراسته . وإنما حسبنا الإشارة إلى المنهج الكلى دون ماعداه . .

د ـ منهج التبليغ :

إلى جانب منهج الدعوة العام ـ الذى سَتَلى إن شاء الله تعالى الإشارة إليه ـ فإن منطقية البلاغ ، وفطرية المنهج : تمثل أنموذجا فريداً فى تاريخ الدعوات .

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (٢)

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد .

(٢) سورة العنكبوت : ٤٦ .

يقول جل شأنه :

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١)

ولعله من أبلغ صور طرح الفكرة ، وأقوى نماذج عرضها ، ما حدث مع وفد نصارى نجران . . وما انتهى الأمر فيه إلى المباهلة التى سجلها الله تعالى فى قوله :

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢)

حتى هذا الموقف ـ و هو من أشد صور البلاغ والحجاج ـ لن تجد ما هو أسمى منه : عدالة له فى عرض الفكرة ، وإشراقا فى أدب المناظرة . . والذى ينتهى إلى قوله : ﴿ فإن تولوا : فإن الله عليم بالمفسدين . . . ﴾

---

(١) سورة الشورى : ١٥ .

(٢) سورة آل عمران : ٦١ ـ ٦٢

ثم يستأنف منهج الترفق والتساهل من جديد : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١)

هـ . الجزية :

وهى أمر يمثل سمة من السِّمات السامية فى دعوة الإسلام : لم يسبق فيه . . ولم يلحق إليه . . .

ذلك أن المسلمين مطالبون : ـ عقيدة وتكليفاً ـ بالقيام بأعباء الجهاد ، وتأمين الأرض ، ومَنْ عليها من الأحياء ، والحِفاظ على حرمات الدين ، والدم ، والعقل ، والعِرْض ، والمال ، وإن تكلفوا فى ذلك حياتهم وأموالهم .

ومطالبون : بالمساهمة فى نفقات المجتمع العام ، وتحقيق نظام التكافل بين طبقاته ، وذلك ـ فى أدنى حدوده ، ومقاديره ـ (بالزكاة) .
وأهل الذمة لايطالبون بشىء من ذلك .
ولعله من أروع حِكَم عدم مطالبتهم بذلك ـ وإن كان عملاً بدنياً ، أو إنفاقاً ماليا ـ

أنهما يمثلان فى الإسلام : عبادة مفروضة على المسلمين .
فكان من سمو العدل ، ومثالية التسامى : أنه لايطالب غير المعتنقين له بشىء من ذلك ! !

ولكن لما كان (الغُنم بالغرم) : قاعدة مقررة فى الفقه الإسلامى ،

---

(١) سورة آل عمران : ٦٣ ـ ٦٤ .

وهى فى نفس الوقت: بدهية من بدهيات الحياة الفطرية : فقد ألزمهم بنوع من المساهمة المالية سماها : (الجزية) .

بمعنى : أنها (تجزىء) عن تكاليف حمايتهم ، والدفاع عنهم ، وعن حرياتهم ، وحرماتهم ، ومعتقداتهم . .

وهى (تجزىء) كدليل مادى على الوفاء والالتزام بعهودهم ومواثيقهم . .

خصوصيات أهل الكتاب :

وإلى جانب ذلك وغيره فقد اختص أهل الكتاب ـ كما سبق أن ذكرنا ـ بمعاملة خاصة . . من أبرزها :

إباحة مطاعمهم

وحل الزواج من نسائهم

لقوله الله تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ
وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ
وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ
وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ
إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ
وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ الآية [1]

وقد يقول قائل :

لكن : لماذا فرق الإسلام فى المعاملة ـ هنا ـ من حيث إباحة زواج

---

(١) سورة المائدة : ٥ .

المسلم بالكتابية . . دون إباحة زواج الكتابى بالمسلمة ؟ .

ولعلنا لو تدبرنا الأمور : بواقعية ، وتجرد ، وعدالة ـ نستطيع أن نصل بيُسر إلى الحكمة العالية فى ذلك : والتى من أهمها :

١ ـ أن للرجل حق القوامة على المرأة . .
والمسلمة ـ شرعاً ـ أسمى من أن يلى أمرها ، والقوامة عليها غير مسلم

٢ ـ أن المسلم يعترف بنبوة موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وبما أنزل عليهما من الكتاب ، ولا يذكرهما إلا بالتكريم والتجلة اللائقة بهما ، باعتبارهما من رسل الله .

بل : ومن أولى العزم من الرسل .
فسوف ـ والحالة هذه ـ لا تجد الكتابية ماتضيق به أومايجرحها فى كنف زوج مسلم . .

بينما الكتابى ليس كذلك . . الأمر : الذى لا يمكن أن تتحقق معه سلامة العيش ، أو استقرار الأسرة .

٣ ـ إن المسلم مطالب بالوفاء بكل حقوق زوجته الذمية حتى ما كان منها متعلقا ـ بعبادتها ومعتقدها ـ

بينما المسلمة لايمكن أن تجد شيئا من الضمان لذلك عند غير المسلم .
وما نراه من واقع الأقليات غير المسلمة فى المجتمع الإسلامى ، واقع نظرائهم من الأقليات المسلمة فى المجتمعات الأخرى غير الإسلامية .

يؤكد هذه الحكمة ، وينوه بفضل وسمو التكاليف والأحكام فى الإسلام .[1]

(١) راجع ذلك مستوفى فى كتابنا : مسائل وقضايا فى مبحث مصاهرة غير المسلمين .

وصدق الله العظيم :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١)

عمـوم المنهـج :

على أن فطرية المنهج فى دعوة الإسلام ليست قاصرة على التعامل مع غير المسلمين .

وإنما هى أمر منهجى ، عام ، يقوم على دعائم ثابتة

أولهـــا : أسلوب الدعوة : وقانونه الدائم فى قوله تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (٢)

ثانيهـا : معاملة كل أمرىء بما يناسبه ، وكل حالة بما يصلح لها . . فليس العالِمُ كالجاهل ، ولا البدوى كالحضرى ولا الصغير كالكبير . . . الخ

وإنما الدعوة فى الإسلام : طِبّ !!

ولا يجوز أن يوضع الدواء إلا فى موضع الداء ، ولا يتم وصفه إلا بعد معرفة ما يلزم له . .

ثالثهـا : التيسير ، وترك التعسير

والتبشير ، وترك التنفير

يقـــول النبـــى ﷺ :

« يسروا ، ولاتعسروا

وبشروا ولا تنفروا » (٣)

---

(١) سورة المائدة : ٥٠ .

(٢) سورة النحل : ١٢٥ .

(٣) متفق عليه عن أنس رضى الله عنه .

ويقول ﷺ : لمعاذ بن جبل ، وأبى موسى الأشعرى - رضى الله عنهما - وقد بعثهما - إلى اليمن :

« ادعوا الناس ، . . .

وبشرا ، ولاتنفرا ، . . . .

ويسرا ، ولا تعسرا

وتطاوعا ، ولا تختلفا . » [1]

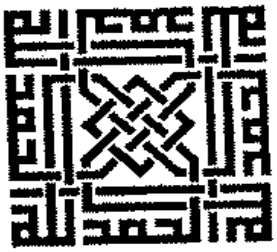

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود والنسائى عن معاذ وأبى موسى رضى الله عنهم .

وقفة لابدَّ منها

سؤال ملح .. ومنطقى

الناظر إلى هذا الدين فى سموه وفطريته ، وفى صدقه وواقعيته ، وفى صلاحه وكمال هدايته . . . و . . . . الخ .

لايتوقع من الناس إلا تمام: الإ قرار : بما جاء به من عقيدة . .

والالتزام : بما شرعه من منهج

والاستقامة : على مابينه من سلوك وخُلُق

لكن الأمر فى الواقع على غير ذلك من ناحيتين :

أولاهمـا : ذلك الكفر والجحود ، الذى يُرخى سدول ظلمته على كثير من بقاع الأرض :

فبعضها : لا يؤمن بإلـه على الإطلاق

وبعضها : تصوره فى صورة إنسان ، أو حيوان ، أو ظاهرة . . أو غير ذلك

وثانيهما : أولئك المسلمون . الشاردون على ربهم . .

الشانئون لمنهجهم ، المحاربون بالفعل والواقع .

أخصّ خصائص سعادتهم . . .

وأقوى أسباب عزتهم . . . .

وأدعم دعائم وحدتهم . . . .

وهو القرآن : اعتقادا . . ثابتا

وشرعاً . . . قائما

وفكرا . . . مقنعاً

وسلوكا . . . وضيئا

وحركة : على سبيل الحياة صادعة مشرقة !!

فلم هذا . ؟ . . ولم ذاك . ؟ . . ياترى . . . !!

ويمكننا : أن نلخص الإجابة على هذا التساؤل بشقيه فى عُجَالة سريعة فيما يلى :

أما لماذا لم يؤمنوا . ؟!

فإن له فى الاستقراء العاجل ـ فى نظرى ـ عدة أسباب . من أهمها :

أولا : سبب فلسفى :

ومنه ما ينقله الأستاذ : الداعية الشيخ محمد الغزالى ـ فى بيانه ـ **عن الإمام الغزالى** ؛ ماخلاصته :

اعلم أن أظهر الموجودات ، وأجلاها : هو الله تعالى

وكان هذا يقتضى : أن تكون معرفته أول المعارف ، وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول .

ولكن ترى الأمر بالضد من ذلك . !!

فلا بد من بيان السبب فيه :

وإنما قلنا : إنه أظهر الموجودات ، وأجلاها ؛ لمعنى : لا نفهمه إلا بمثال .

وهو : أنا إذا رأينا إنسانا يكتب ، أو يخيط ـ مثلا ـ كان كونه : حياً ـ عندنا ـ من أظهر الموجودات .

فحياته ، وعلمه ، وقدرته ، وإرادته للخياطة : أجلى عندنا من سائر صفاته : الظاهرة والباطنة

إن صفاته الباطنة : ـ كشهوته ، وغضبه ، وخُلُقه ، وصحته ، ومرضه كل ذلك ـ لا نعرفه .

وصفاته الظاهرة : لا نعرف بعضها ، وبعضها نشك فيه : كمقدار طوله واختلاف لون بشرته . إلخ .

أما حياته ، وقدرته ، وإرادته ، وعلمه ؛ وكونه حيواناً : فإنه جَلِيٌّ عندنا . !

وإن كنَّا لا نرى بأعيننا حياته ، وقدرته ، وإرادته .
فإن هذه الصفات لا تحس بشيءٍ من الحواس الخمس . . .
فما عليه إلا دليل واحد :
هو عمله بيديه .

ومع ذلك الدليل الواحد على وجوده : يوصف بأنه : موجود جلى واضح .

فماذا يقول المرء فى وجود الله : الذى لا تحصى أدلته لكثرتها . . ؟ ؟
وماذا يقول فى أوصافه : التى يشهد كل شىء بعظمتها . ؟ ؟
إن وجود الله تعالى ، وقدرته ، وعلمه ، وسائر صفاته : يشهد له ـ بالضرورة ـ كل ما نشاهده ، وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة . . .

بل أول شاهد عليه أنفسنا ـ نحن ـ وأجسامنا ، وأوصافنا ، وتقلب أحوالنا ، وتغير قلوبنا ، وجميع أطوارنا ، فى حركاتنا وسكناتنا . .
ـ إلى أن يقول : ـ

ولكن : لما لم يبق فى الوجود شيء مدرك : محسوس أو معقول ، حاضر أو غائب ، إلا هو شاهد ، ومعرف له :
عَظُمَ ظهورُه سبحانه :
فانبهرت العقول ، ودهشت عن إدراكه . ! !
قال : ـ **ثم قال الغزالى** موضحا علة هذا القصور :
ذلك . . . وما تقصر عن فهمه عقولنا له سببان : ـ
أحدهما : خفاؤه فى نفسه وغموضه ـ وذلك لا يخفى مثاله . .
وثانيهما : ما يتناهى وضوحه . . ! !

إن الخفاش يبصر بالليل ، ولا يبصر بالنهار ، لا لخفاء النهار واستتاره . .

لكن لشدة ظهوره ! !

فإن بصر الخفاش ضعيف : يبهره نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره : سببا لامتناع إبصاره . فلا يرى شيئاً ، إلا إذا امتزج الضوء بالظلام ، وضعف ظهوره . فكذلك : عقولنا ضعيفة ،

وجمال الحضرة الإلهية :

فى نهاية الإشراق ، والاستنارة .

وفى غاية الاستغراق والشمول

حتى لم تشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض .

فصار ظهوره : سبب خفائه . . ! ! .

فسبحان من احتجب بإشراق نوره ، واختفى ـ عن البصائر ، والإبصار ـ بظهوره . . ! !

ولا يُتَعجَّب من اختفاء ذلك بسبب الظهور :

فإن الأشياء تستبان بأضدادها . . .

ومثاله : نور الشمس المشرق على الأرض :

ما كان أيسر جحوده ؛ لو أنه دائم البقاء . ! .

فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها : لكنا نظن أنه لاهيئة فى الأجسام إلا ألوانها : وهى السواد والبياض وغيرهما .

ولكن . . . لما غابت الشمس ، وأظلمت المواضع : أدركنا التفرقة بين الحالين .

فعلمنا : أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء ، واتصفت بصفةٍ فارقتها عند الغروب :

وعـرفنا وجود النور : بعدمه ، وما كنا نطلع عليه ، لولا عدمه إلا بعسر شديد ، . . . هذا . . مع أن النور أظهر المحسوسات ، إذ به ندْرك سائر المحسوسات .

انظر : كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده . ؟ ؟

فالله تعالى هو أظهر الأمور ، وبه ظهرت الأشياء كلها .

ولو كان له عدم ، أو غيبة ، أو تغيير :

لا نهدمت السمـوات والأرض ، وبطل الملك والملكوت ، ولأدركت بذلك التفرقة بين الحالين .

ولو كان بعض الأشياء موجوداً . . به . وبعضها موجوداً . . بغيره : لأدركت الفرق بين الشيئين فى الدلالة

ولكن : دلالتـه عامة فى الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم فى الأحوال . . . يستحيل خلافه .

فلا جرم . . . أورثت شدة الظهور الخفاء . !!

فهذا هو السبب فى قصور الأفهام [1]

ثانيا : سبب تاريخى :

وقد نشأ ذلك من ظروف وتطورات عديدة :

بعضها يتصل بحروب اليهود والنصارى للإسلام على طوال القرون ؛ خاصة فيما يتصل بحروب الأندلس ، وسقوطها فى أيدى الأسبان بعد قرونٍ عديدة : عاشتها تحت ظلال الإسلام : كانت فيها حاضرة الدنيا ، ومركز الإشعاع الثقافى ، والفكرى ، والحضارى ؛ فى أوربا كلها . . . بل ومركز التأثير فى المدارس الفكرية فى العالم كله . .

(١) راجع كتاب عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى وكذا إحياء علوم الدين للإمام أبى حامد الغزالى .

ثم الحروب الصليبية ، وما سبقها من الإعداد لها ، وتهيئة النفوس لتحمل أعبائها وتكاليفها ، وما صاحبها من أسلوب دعائى ، أو ما أعقبها من منطق تبريرى

بالإضافة إلى ذلك : دور الكنيسة فى العالم المسيحى ـ فى العصور الوسطى ـ من المساهمة فى الترويج لسيادة الإقطاع وسيطرة رأس المال : **وأكثر ما يبرز ذلك فى شُعبٍ ثلاث** :

أولا : دور رجال الدين فى بث الضعف والتخاذل فى الشعب المسيحى ، وحمله على أخلاق الذل ، والمسكنة ، وقبول الأمر الواقع .

وما تبع ذلك من الفصل بين الدين والدنيا كَمِثْل ما حُفِظ من مبادئهم : التى راجت ، وانتشرت ، وحفظت عنهم مثل :

دعوا مالقيصر : لقيصر ، ومالله : لله .
مَنْ ضَرَبك على خدك الأيمن : فأدر له الأيسر .
لا تقاوم الظلم .
وهكـــــذا .

ثانيا : استغلال الكنيسة للدين استغلالاً سيئاً ، والتحكم به فى مقادير البشر ومصائرهم ، وابتداع فكرة : صكوك الغفران ، وقرارات الحرمان

ثالثا : دور الكنيسة : فى محاربة الفكر ، والإنتاج العقلى ، والابتكار العلمى ، ومساهمتها فى المنهج الوحشى فى العقوبة ، وما كان يسمى : ـ فى بعض صوره ـ بمحاكم التفتيش ، ونحوها .

رابعا : تملُّك الكنيسة ـ ذاتها ـ للإقطاعيات ، ورؤوس الأموال ، واستغلال العمال ، وإذلالهم .

الأمر الذى ترتب عليه ـ وساعد فى ـ قيام الفلسفات المضادة ، التى

صاحبت الثورات الإصلاحية فى أوربا ، مثل الفكر الاشتراكى ـ عامة ـ والماركسىّ خاصة ـ **وعزل الدين عن الدنيا** ، وتحطيم دور الكنيسة والكهنة المنعوتين (**برجال الدين**) : عن التأثير فى الحياة العملية .

ثم . . . وللأسف الشديد : سحب كل هذه الآثار على الإسلام ، وتعاليمه ، ونشرها فى مجتمعات المسلمين :

إما عن خبث ، وسوء نية

وإما عن جهل مطلق ، بأبسط مبادىء الإسلام وأحكامه

ثالثا : سبب واقعى :

ولعله : ما أبرز ما يصور هذا السبب : انحطاط المجتمعات الإسلامية بعوامل شتى ، من أهمها :

■ **الفرقة والتمزق .**

■ **سيادة الاستعمار على أرضهم** ، وسيطرته على مقدراتهم ، وثرواتهم .

■ **الدور المغرض : الذى قام به المبشرون** فى تشويه مبادىء الإسلام وعقيدته : خدمة للاستعمار ، وعداءً للإسلام .

■ **بعد المسلمين عن التطبيق الصحيح** لمبادىء الدين وأحكامه .

■ **بعدهم عن مجالات : الانتاج ، والابتكار ، والإبداع ،**

وقناعة أكثرهم : بما يأتيه من البلاد (السِّيَادِيَّة) المستعمرة : حتى فيما يتعلق بمناهج التعليم ، ونظام المجتمع ، وقوانين الحياة ، ونحوها . . .

ومن هنا أصبح المجتمع الإسلامى : منذ ذلك الحين ، وحتى اليوم : **الحجة على الإسلام** ، والصورة المشوهة : لأحكامه وتعاليمه ، والعقبة الكئود : دون انتشار مده ، وسيادة مبادئه .

وأصبحت النظرة إلى العالم الإسلامى تتلخص فى أدنى ما ينظر به إلى

أمة متحضرة ، أو مجتمع ذى حضارة وتاريخ . . . وخلاصة ذلك فى ما يلى :

■ **أنه مناجم للمواد الأولية .**

■ **أنه سوق للاستهلاك المطلق لا يصلح للإنتاج .**

■ **أنه مجتمع موصوف بالتخريب والتدمير** ـ ولا يوصف بالإبداع والابتكار .

■ **أنه مجتمع يقوم على الاضطراب ، وعدم الاستقرار ،** وتعشعش فيه سمات : الخوف ، والعدوان ، والوحشية ، وعدم توفر الأمن والطمأنينة .

موصوف ـ دائماً ـ بالترف ، وسوء التصرف .

وهو بالتالى : شعوب تحكم بالقوة ، والقسوة ، والحديد ، والنار .

وسحب ذلك ـ كله ـ عن عمد ، وإصرار ، وسوء نية : على الإسلام .

وسرد الأمثلة على ذلك من أقوالهم ، وتصريحات زعمائهم . فى الغرب الصليبى ، والشرق الشيوعى أكثر من أن تتسع لها مثل هذه الرسالة .

وهى ـ فى نفس الوقت ـ من الشيوع والانتشار بحيث لا تحتاج منا إلى الإغراق فى ضرب الأمثله . . وتعداد النماذج والصور

رابعا : سبب منهجى :

ويمكن إجماله :

فى سوء عرض الدعوة إلى الإسلام .

وتوزيع جهود العاملين فى حقلها .

وتبعيتها ـ فى أحيان كثيرة وغالبه ـ لنظم لاتؤمن بالإسلام : إيمانا يجعلها تلتزمه : منهجا ، وشرعة ، بل وتتخذ الدعوة إليه ـ عادة ـ مطية للتأثير ، أو أسلوباً للدعاية والشعارات

بالإضافة - إلى ما قد ينضم إلى ذلك أحياناً - من ضعف الدعاة أنفسهم ؛ الناشىء عن الإضعاف المتعمد لمصادر ثقافتهم ، ومعاهد تعليمهم .

بالإضافة إلى الأسلوب المتعمد - أيضا - القائم على الغض من قيمتهم فى المجتمع ، وعدم إعطائهم حقهم الطبيعى - فى الحياة العامة - من التكريم والرعاية . .

ينضم إلى ذلك : مؤسسات فكرية مصنوعة - سلفاً - على أساس منهج - معد - ، وهدف مرسوم : تولت تنشئة أجيال عديدة من موجهى الفكر ، وحملة الأقلام ، وقادة التوجيه ، ومراكز التأثير ، فى المجتمع الإسلامى .

وكلها تتعاون على النيْل من الإسلام ، والغض من صلاحيته للحياة ، والاستخفاف والزراية بكل حملته . والدعاة إليه ، والمنتسبين له . ورميهم بكل نقيصة ، ووضع الحواجز الصُّلبة فى طريقهم : سواء : الحواجز المادية ، أو الأدبية ، أو النفسية ، حتى لا يتمكنوا من التسلح بما يلزمهم ، والقيام بدورهم .

ومن هنا نستطيع أن نقول : إن ذلك الجانب بالذات - إلى جانب نَضْح كل ماسبق : عن طريق مباشر ، أو غير مباشر ، كان من أبرز عناصر :

عزل المجتمع الإسلامى عن الفهم الصحيح ، والتطبيق السليم .
بالإضافة إلى ما يسود فيه من تعدد الفِرَق واختلاف المناهج . حتى فى مجال الدعوة ذاتها ، وعلى الصعيدين الإسلامى والعالمى على السواء .
الأمر الذى عرَّضَهم جميعا لشتى ألوان المصائب وصنوف البلاء .

وبذلك تكون قد وضحت الإجابة على الشق الثانى من السؤال: وهو الذى يقول :

لماذا لا يطبق المسلمون الإسلام .؟؟

ثـم مـاذا.؟؟!

ورغم ذلك كله . . فإن المستقبل ـ ولا شك ـ للإسلام . . ! !

وليس ذلك ناشئا من خيال ، أو من فراغ ! ! .

وإنما له ـ عندنا ـ أسبابه : العلمية ، ومقوماته : المادية ، والمعنوية ومنها :

أولا : طبيعة هذا الدين ، وطبيعة مبادئه ، وقدرتها على مقاومة كل التيارات المناوئة ، والتغلب عليها فى النهاية ، حتى ليقول (فيليب حتى) : (لقد ثبت على التاريخ : أنه كلما انهزم المسلمون : انتصر الإسلام)

ثانيا : الصحوة الإسلامية السائدة والتى تعم كل الكوكب الأرضى بكل آفاقه ، العلمية ، والعملية ، والتشريعية والتى تجبرها الظروف على الظهور تارة . . ، والاختفاء تارات أخرى .

ثالثا : إحساس كل أصحاب العقائد والمذاهب الأخرى بالإفلاس المنهجى والعَقَدى ، والفراغ الروحى .

ولم يجدوا بداً من الاعتراف بسمو الرصيد الذى لدى آمة الإسلام .

مما سجلوه بفكرهم ، ودفع الكثيرين منهم إلى الدخول فيه أفواجا .

والأمثله : أكثر من أن تحصى ، وشواهدها : بارزة فى كل آفاق الحياة ومجالاتها .

رابعا : إحساس الشعوب الإسلامية : بخيبة الأمل فى كل قضاياها

وأحوالها ، ومناهجها : الدولية والمحلية ، والمادية والمعنوية : بسبب المسْلك الذى كانت عليه ، والجهات التى كانت تعتمد على مساعدتها ، وتتوهم فى إخلاصها لقضاياهم ومناصرتها لحقهم .

ولم يبق لها إلا البحث عن منهج بديل :

ولم تجده ـ يقينا ـ ولن تجده : إلا فى الإسلام .

فهى تتجه إليه بأساليب شتى ، بعضها يتمثل : فى استخدام المناورة ـ وسلوك خطى متعثرة . . مترقبة . . . واجفة .

وبعضها : يبدو فى التفكير العميق ـ والعمل المتأنى .

وبعضها فى الرغبة الجامحة إلى التغيير الطفرى

وبعضها فى مناهج البناء والإصلاح الاجتماعى . . وهكذا

خامسا : الوعد الإلهى ـ وهو وعد لا يتخلف ـ إذ أنه يمثل بحق : قانون القوانين فى الحياة ، وناموس النواميس فى نظام الكون وبقائه . .

ويشير إليه :

فى مجال الاعتقاد قوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (١)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٢)

وفى مجال السيادة والعزة والشمول قوله تعالى :

﴿ . . وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (٣)

وفى مجال التشريع ، والتطبيق ، والإصلاح العام قوله تعالى :

---

(١) سورة فصلت : ٥٣

(٢) سورة الفتح : ٢٨

(٣) سورة التوبة : ٣٢

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (١)

وقد قال ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ

أكمل الله لهم الدين : فلا يحتاجون معه إلى زيادة أبدا .
وقد أتمه : فلا ينقصه أبداً .
وقد ارتضاه : فلا يسخطه أبدا .

ويوشك أن نرى من قريب : ـ إن شاء الله تعالى ـ رايات الحق تقبل من كل جانب ، وتهتف بها جموع الناس : جماهيرهم ، وقيادتهم من حولها :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (٢)

والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) سورة المائدة : ٣
(٢) سورة آل عمران : ١٩

الفهـرس

الموضـوع	الصفحـة
تمهيد	٩
فطرة الإسلام . . . ما هى؟	١١
دلالة التسمية	١٧
حديث الفطرة	٢٦
منهج المسلم فى عرض فكرته	٢٩
من دلالة قوله تعالى ﴿إن الدين عند الله الإسلام ﴾	٣٠
الإسلام وتحقيق التكامل والانسجام	٣٣
أفق الإيمان	٣٩
حقيقة اليقين ودرجاته	
القاعدة الأولى : الإيمان اليقينى	٤١
القاعدة الثانية : التفكير فى الإسلام فريضة	٤٧
القاعدة الثالثة : حقيقة النظر، وحدوده	٤٨
القاعدة الرابعة : انسجام الآيات وتضافرها	٤٩
من القاعدة إلى التطبيق	
المنهج الأول : التدبر فى الآيات القرآنية	٥٧

الموضوع	الصفحة

التدبر فى الآيات الكونية، وقانون الخلق ٦٥

التدبر فى الآيات الكونية ٦٧

قانون الخلق ٦٨

تعذر معرفة حقيقة الخلق ٧٤

قصة الوجود الإنسانى ٧٥

وقصة الأرض . . . أيضاً ٧٩

إشارة إلى عظمة الكون ورهبته ٨٢

خلق الكون كما يخبر القرآن الكريم ٨٤

المرتبة الأولى ٨٤

المرتبة الثانية ٨٦

المرتبة الثالثة ٨٧

والنتيجة الحتمية : لا إلهٰ إلا الله ٨٨

قانون الحركة ٩٣

وقانون الحركة فطرى . . . أيضاً ٩٥

تنوع أساليب القرآن فى قانون الحركة ١٠٠

قانون التصريف ١٠٣

المراد بقانون التصريف ١٠٥

قانون الخصائص المشتركة ١١١

آية الفطرة الصادعة ١١٣

الموضوع	الصفحة

قانون النماء والتكاثر ١١٧

أولاً : قانون النماء فى النوع الإنسانى ١١٩
ثانياً : قانون النماء فى الأرزاق ١٢١
ثالثاً : قانون النماء فى مجالى : الحس والعقل ١٢١
رابعاً : ومع الفناء الرهيب ـ أيضاً ـ يكون النماء. ١٢٢
خامساً : والنماء والامتداد : قانون الكون الأعلى. ١٢٣
سادساً : والنماء والفناء فى الكون الأعلى ـ أيضاً ١٢٤

فى النهاية لا بديل عن الإيمان ١٢٥

خاتمة المطاف ١٢٧

أفق الشريعة

التى تواكب الفطرة، وتحقق السعادة الأبدية ١٣٣
شريعة الفطرة ١٣٥
قواعد الشريعة ومبادئها الأساسية ١٣٥
أولاً : العموم والشمول. ١٣٦

السمة الأولى : العدالة المطلقة ١٣٧

السمة الثانية : المساواة الكاملة ١٤٠
السمة الثالثة : أنها شريعة مرنة ١٤١
السمة الرابعة : أن الاجتهاد فى شريعة الإسلام فريضة ١٤٢

الموضوع	الصفحة

الدعامة الثانية : واقعية التشريع ١٤٤

الدعامة الثالثة : اليسر ودفع الحرج ١٤٨

الدعامة الرابعة : وسطية الشريعة ١٥٠

أفق الدعوة ١٥٣

فطرية المنهج فى الدعوة ١٥٥

منهج التعامل مع غير المسلمين ١٥٧

خصوصيات أهل الكتاب ١٦٣

عموم المنهج ١٦٥

وقفة لا بدّ منها ١٦٧

سؤال ملح ومنطقى ١٦٩

أولاً : سبب فلسفى ١٧٠

ثانياً : سبب تاريخى ١٧٣

ثالثاً : سبب واقعى ١٧٥

رابعاً : سبب منهجى ١٧٦

ثم ماذا؟ ١٧٨

كتب للمؤلف

١ ـ **جامع البيان لما اتفق عليه الشيخان** :

كتاب موسوعى فى الحديث الشريف صدر منه ثلاثة أجزاء (قسم العقائد)

وجارى طبع بقية أجزائه :

دار المنار الإسلامية بالكويت **ودار الصفوة** بالفردقة ـ بمصر

٢ ـ **المسئولية فى الإسلام : (الفرد والجماعة)**
عدة طبعات
٣ ـ **مسئولية الجماعة فى الإسلام** .
} دار السعودية للنشر والتوزيع بالمملكة العربية السعودية

٤ ـ **الماسونية بين الحقيقة والشعارات** } جمعية الإصلاح الاجتماعى بالكويت

٥ ـ **مدخل إلى معرفة القرآن الكريم** المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر

٦ ـ **رجال ، ومناهج فى الفقه الإسلامى** .
٧ ـ **هذا القرآن فأين منه المسلمون ؟ ٣ أجزاء** .
} وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت **ودار الصفوة** بمصر

٨ ـ **مسائل وقضايا فى الفقه الإسلامى** . دار المنار الإسلامية بالكويت

٩ ـ **الدعوة إلى الله فقهاً ومنهجاً** . } » » » **ودار الصفوة** بمصر

١٠ ـ **فى عالم القيم ـ مع كبار الصحابة** مكتبة الفلاح بالكويت

١١ ـ **هذا القرآن فأين منه المسلمون ؟** باللغة الأوردية

ترجمة الشيخ عبد الجبار بن عبد الغنى السلفى دار الزكى بناجبور ـ الهند

١٢ ـ **الإسلام والمؤامرات اليهودية** . } دار المنار الإسلامية بالكويت **ودار الصفوة** بمصر

١٣ ـ **هذا الكتاب : الإسلام والفطرة** **دار الصفوة** بمصر

<u>ملحوظة</u> :

٤/ أصبح هذا الكتاب فصلاً فى كتاب : الإسلام والمؤامرات اليهودية .

٥/ » » » جـ ١ من كتاب : هذا القرآن فأين منه المسلمون ؟ .

رقم الإيداع ٤٤٩٣ / ١٩٩١
I.S.B.N.
977 – 5147 – 15 – 8

كتب للمؤلف

١ ـ جامع البيان لما اتفق عليه الشيخان :
كتاب موسوعى فى الحديث الشريف صدر منه ثلاثة أجزاء
(قسم العقائد) وجارى طبع بقية أجزائه :

٢ ـ المسئولية فى الإسلام : (الفرد والجماعة) عدة طبعات

٣ ـ مسئولية الجماعة فى الإسلام .

٤ ـ الماسونية بين الحقيقة والشعارات

٥ ـ مدخل إلى معرفة القرآن الكريم

٦ ـ رجال ، ومناهج فى الفقه الإسلامى .

٧ ـ هذا القرآن فاين منه المسلمون ؟ ٣ أجزاء .

٨ ـ مسائل وقضايا فى الفقه الإسلامى .

٩ ـ الدعوة إلى الله فقهاً ومنهجاً .

١٠ ـ فى عالم القيم ـ مع كبار الصحابة

١١ ـ هذا القرآن فاين منه المسلمون ؟ باللغة الأوردية
ترجمة الشيخ عبد الجبار بن عبد الغنى السلفى

١٢ ـ الإسلام والمؤامرات اليهودية .

١٣ ـ هذا الكتاب : الإسلام والفطرة

Bibliotheca Alexandrina
0339499

دار الصفوة

To: www.al-mostafa.com